كلاسيكيات جدل

JADAL CLASSICS

دوناتيين

رينيه بازان



ترجمة

بهاء إيعالي



منشورات جدل

JADAL PUBLISHING

رواية

دوناتيين

رينيه بازان

ترجمة: **بهاء إيعالي**

العنوان الأصلي باللغة الفرنسية

Donatienne



ا

مزرعة روس غرينيون

كانا جالسَين، الرجل والمرأة، في أعلى التلّ عند عتبة المزرعة، ورأساهما مستقرّان فوق راحتي أيديهما، هو طويلٌ للغاية وهي قصيرة بوضوح، وكلاهما بريتانيّ من السلالة العتيقة. وكانت العتمة تهبط للتوّ.

ثمّة شريطٌ أحمرُ رفيعٌ كخيطِ المغزل، بطولِ فراسخَ وبالكادِ مقطوعٌ هنا وهناك جرّاء التموّج البعيد للأرض، يلمخ إلى اتساع الأفق أمامهما، ولكن لم يأت ولا حتّى أيّ ضوء خافت، لا إلى الغيوم البيضاء التي حجبت السماء ولا إلى غابة لورج التي تقرّ وديانها وأطرافها على شكلّ تموّجاتٍ مبعثرة. وأسراب السحب في السماء وأسراب الضباب في ثنايا أوراق الشجر، كلّ شيء كان متّجهاً بذات الاتجاه وكلّ شيءٍ بدا غافيًا، وثمّة رائحةٌ لاذعة، ذلك التنفّس الليلي للغابة، تنتشر على فتراتٍ متباعدة. وعلى حافة الغابة، على بعد ثلاثمئة مترٍ من المنزل، بدا مستنقعٌ وكأنّه بقعةٌ بنيّة، ومن ثمّ كان هناك حقلٌ ضئيلٌ من الحنطة السوداء المحصودة، وبالقرب منه ذلك المنحدر الصخري الصغير المليء بنبات الوزال، وهو الذي تقوم عليه مزرعة روس غرينيون.

كانا فقيران. تزوّج الرجل بعد عودته من الخدمة العسكرية من ابنة بحار، وكانت تعمل خادمةً في أبرشيّة إيفينياك التي لا تبعد كثيرًا عن بلويغ. وكان بحوزتها مدخراتٌ تقدّر ببضع مئاتٍ من الفرنكات، وعينان سوداوان بريئتان ونضرتان للغاية تحت غطاء رأسها ذي الأجنحة المرفوعة على شكلّ زهرة بخور مريم. أمّا هو فلم يكن يملك شيئاً.

جنديّ عائدٌ من الفوج، أليس كذلك؟ لكن لا شكّ أنّ اختياره لها لم يكن لمالها

بقدر ما كان لأنّه يحبّها، ولأنّه عرف بكونه عاملًا ماهرًا ويشتغل بجدٍّ فقد تمكن من شراء أربعة هكتاراتٍ من الأراضي السيّئة وعشرين شجرة تفاح، ومنزلٍ يتألّف من إسطبلٍ تبيت فيه البقرة وغرفة ينام فيها البشر، وكلّ ذلك تحت نفس سقف القش بسماكة مترٍ واحدٍ ولونه بنيّ كاملٌ بسبب الطحالب: وأخيرًا مزرعة روس غرينيون. ومع ذلك فدخله سيّئ جدًا، فخلال سنوات زواجه الستّ أنجب ثلاثة أطفال، بحيث أنّ آخرهم جويل يبلغ من العمر خمسة أشهرٍ فقط. وفي أيّام الألم الشديد لم تستطع الأم أن تساعد زوجها في حراثة الأرض وزراعتها وتعشيبها وحصادها، وكان الشوفان يباع بشكلّ سيّئٍ والحنطة السوداء تؤكلّ كاستهلاكٍ منزليّ بكاملها تقريبًا، فيما تسبّبت ظلال الغابة والجذور العميقة لأشجار البلّوط وأعشاب الجولق بتقزّم النباتات.

جاء الليل هادئًا ورطبًا كالعديدِ من ليالي سبتمبر، وفي غرفة النوم، وراء جان لوارن وزوجته، علت ضوضاء المهد المنتظمة حيث كانت نويمي الصغيرة، البالغة عامها الخامس، تهزّه بشدّ حبله إذ كانت تنوّم جويل. كلاهما لا يتحرّكان، وبعيونٍ ضبابيّةٍ بديا كما لو كانا يشاهدان شريط الضوء الأحمر وهو يتضاءل فوق الغابة، فيما سقطت قطراتٌ من الندى وهي تنزلق من قصبات القشّ على عنق الرجل دون أن يلاحظها. كانا يستريحان، يفتحان صدريهما للنّسيم البارد دون التّفكير بأيّ شيء، باستثناء الفكرة الدّائمة للبؤس الّذي لم يعد مشتركاً، والذي يعيشه كلّ واحدٍ بمفرده عندما يستمرّ لفترةٍ طويلة.

انقطع صوت اهتزاز المهد وصاح الطّفل النائم بشكلّ سيّئ، فأدارت المرأة رأسها نحو نهاية الحجرة قائلةً:

-هزّي المهد يا نويمي، لم لا تهزّين؟

لم يردّ أحد. عاد الصوت العذب للخوضِ مرّةً أخرى، لكنّ الأب خرجَ من التفكير المنغمس فيه وقال ببطء:

-ينبغي بيع البقرة.

-أجل ينبغي بيعها. أجابت المرأة.

لم تكن هذه هي المرّة الوحيدة التي يتحدّثان فيها عن أخذ البهيمة الوحيدة في الحظيرة لبيعها في السّوق، لكنهما لم يتّخذا قرارًا بهذا الشأن، منتظرين وسيلةً أخرى للخلاص دون أن يعرفوها.

-ينبغي بيعها قبل حلول الشتاء. قال لوارن.

وصمت بعدها، فيما نام جويل الصّغير، ولم يصدر أيّ صوتٍ لا من المزرعة ولا من الرّيف الشّاسع المنتشر حولها. أمسى ضوء الغروب نحيفًا كخيط، فتلك هي السّاعة التي تنهض فيها الحيوانات الجارحة من الغابة، كالذّئاب والثّعالب وأبناء عرسٍ، وتشمّ رائحة الليل مادّةً أعناقها، وفجأة تبدأ في الهرولة، وهي تهزّ أقدامها، على طول الممرّات الضيّقة والمتعرّجة.

-مساء الخير! قال صوتٌ أجش.

نهض الرجلُ والمرأة بارتجاف، وغرائزيّاً خطا لوارن خطوةً إلى الوراء ليصبح بين زِوجته وبين القادم. للحظةِ انحنى إلى الأمام باحثًا عن ظلّ المنحدر الحجريّ، وذراعاه ممدودتان على طول جسده وجاهزٌ للقتال. ولكن في أثر الضوء الباهت الّذي تسرّب من الباب وصنع ممرّاً صغيرًا عبر الضباب ظهرَ رأسٌ، ومن بعده اتسع جسدٌ كبيرٌ بطيّات بلوزةٍ لرجل.

-لا تخف يا لوارن فهذا أنا، وقد أحضرتُ لك رسالة.

-ومع ذلك فهذه ليست ساعةً مناسبةً للتجوّل على الطرقات. قال لوارن.

-إنّك تعيش بعيدًا، وقد أتيت بعد أن سحبت الرّسائل. قال الساعي. تفضّل، ها هي رسالتك!

مدّ المزارع يده ونظر إلى الظّرف بضحكةٍ حزينة. ما الّذي يفعله به، رسالة لا أكثر أو أقل من المحامي غيّون وكيل الآنسة بنوات؟ لأنّه لم يستطع الدّفع فقد كانت الكتابة عديمة الفائدة. وقال:

-هل تودّ الدّخول؟ هل تريد كأسًا من السيدر(1)؟

-لا ليس هذا المساء، مرّةً أخرى.

واختفت البلوزة المستديرة بعد أن خطّا الرجل ثلاث خطوات لأنّ الضباب قد تكاثر.

-لندخل. قال لوارن.

وعندما أغلق الباب وأوصد القفل الخشبيّ اللمّاع عند طرفه بفعل الاستخدام الطويل، قامت زوجته التوّاقة لمعرفة الأمر برفع الشمعة العالقة في عنق الزجاجة عن الأرض، ووضعتها على المنضدة وانحنت عليها وعيناها تلمعان.

-قل لي يا جان، من أين أتت الرّسالة؟

على الجانب الآخر من المنضدة حوّل الظرف بين يديه مرّتين أو ثلاث مرّات، ورفعه إلى وجهه الطّويل، النحيل والحليق تمامًا سوى من بعض الشعيرات قرب الشعر، وقال فيما هو لا يفهم لغة السّيد غيّون:

-خذيها واقرئيها يا دوناتيين. الرسالة ليست منه، وأنا لا أفهم الكتابة المنمّقة إطلاقًا.

وبدوره نظر إلى البريتانيّة الشابة التي قرأت بسرعةٍ متتبّعةً السطور بإيماءةٍ من رأسها، واحمرّت وارتجفت، وانتهت بالقول وعيناها مرفوعتان، مخضلّتان بالدموع ومبتسمتان:

-إنّهم يطلبون منّي أن أعمل مرضعة!

واكفهرّ لوارن وغار خدّاه المسطّحان الأبيضان كلّون الأرض السيّئة التي يحرثها، وقال:

-إذًا لدى من؟

-لدى أناس لا أعرفهم، لكنّ اسمهم مكتوبٌ هنا. أما الطبيب فهو من سان بريوك.

-ومتى سترحلين؟

عندها خفضت جبينها نحو الطاولة ورأت كيف كان لوارن مضطرباً.

-غداً صباحاً، وقد طلبوا منّي أن أستقلّ أوّل قطار... صحيح، لم أتوقّع ذلك أبداً يا حبيبي!...

في الواقع فإنّ الفكرة خطرت لهما قبل ولادة جويل، بحيث أنّ دوناتيين بإمكانها إيجاد عملٍ لها كمرضعةٍ شأنها شأن العديد من الأقارب أو الجيران الآخرين في البلاد، وكانت الزوجة الشابة قد ذهبت لرؤية طبيب سان بريوك الذي أخذ اسمها وعنوانها. ولكن بعد مرور ثمانية أشهرٍ دون تلقي أيّ رد اعتقدا أن الطلب جرى تجاهله. وقد ذكر ذلك الزوج لوحده مرّةً أو مرتين

ليقول لها في موسم الحصاد: «من حسن الحظ أنّهم لم يطلبوك يا دوناتيين! كيف كنت سأعمل لوحدي؟!».

-لم أتوقع ذلك أبداً! كرّرت البريتانيّة الشابة وأسفل وجهها مضاءٌ بالشمعة. لا، حقّاً تفاجأت بذلك!...

وبدأ قلبها يخفق رغماً عنها، واندفع الدم إلى خدّيها وجاءتها فرحة مشوّشةٌ خجلت منها بفعل هذه الورقة البيضاء التي تأمّلتها الآن دون أن تقرأ أيّ شيءٍ منها: كان الأمر أشبه بهدنةٍ مع بؤسها، وقد عرضت عليها خلاصًا من هموم حياتها كفلاحةٍ مضطرّةٍ لإطعام الزوج ورعاية الأطفال والحيوانات دون راحة. شعرت بانزياح الإرهاق والملل المثقل لكاهلهما بعض الشيء. إنّ القصص التي تحكيها نسوة بلويغ، والهدايا التي تُغدقُ على المرضعات هناك في المدن، النظرات السريعة للكتان المطرّز وأشرطة الحرير ولفائف الذهب، وكذلك فخرها بأنّ الطبيب أرسلها إلى منزلٍ كبيرٍ في باريس، كلّ هذا أومض في ذهنها بفوضى شديدة. أمست محرجة، واتجهت نحو المهدين المتجاورين بالقرب من السرير ذي ستائر النسيج المبرد الأخضر، وتظاهرت بوضع البطانيات للوسيين وجويل.

-صحيحٌ أنّك ستكون حزينًا يا حبيبي... ولكن لا بدّ من نهايةٍ لهذا كما ترى.

لم يجبها بكلمةٍ واحدةٍ ولم يتحركْ ظلّه ولا ظلّها على الحائط. وسمعت قطرتين من المياه تتساقطان في الخارج من سقف القشّ فوق الحجارة، وتابعت:

-كما أنّني سأجني بعض المال وسأرسله لك، لا بدّ أن هؤلاء الناس أغنياء، وسيعطونني أقمطةً سيحتاجها الصغار بشدّة...

استعاد الصمت التام سيطرته على الغرفة الوحيدة في المنزل التي بدت للحظةٍ شيئًا ميّتاً، مسحوقةً كالغابات والمستنقعات تحت الندى الكثيف في ليلة سبتمبر تلك. أدركت دوناتيين أن الفرح الذي لم تستطع احتواءه قد تلاشى تدريجيًا، وأنّه ما من شيءٍ بهيئتها يسيء إلى زوجها بعد الآن. وحدّقت بلوارن.

لم يتحرّك قط، وأضاءت الشمعة عينيه الزرقاوين اللتين بدتا شبيهتين -تحت شجيرة الحاجبين- بضبابٍ خفيفٍ بعض الشيءِ وتبرزُ منه النظرة الغائمة لمسكينٍ تاه في حزنٍ شديد. تابع حركات دوناتيين دون أن يلاحظ لا ابتسامتها، لا احمرار وجهها ولا بطء دورانها حول المهدين؛ تابعها بيأسٍ ولا شيء سواه، وكأنّها بعيدةٌ عنه بالفعل، منفصلةٌ عنه مقدار فراسخ وفراسخ. لدى البحّارة نفس النظرة عندما ينزل الشراع في الأفق إلى ما لا نهاية البحر.

-جان؟ جان لوارن؟ نادته.

اقترب ببطءٍ ودار حول الطّاولة إلى مهد جويل، فيما كانت دوناتيين هناك بلا حراك. أمسك بيدها وحدقا في الأطفال النائمين في العتمة، في الرؤوس الشقراء الملتفتة نحو بعضها البعض نصف المغطاة بأطراف الوسادة المائلة فوقهم. وقالت دوناتيين:

-سوف ترعاهم! جويل صغيرٌ جداً! لوسيين محتالةٌ جداً! لا أحد يعرف إلى أين ستذهب، فهي تجري بسرعةٍ كبيرة، وكثيرًا ما خفت عليها بسبب البئر. سوف تنصح لمن سيأتي...

أومأ الرجل رأسه بالموافقة.

-كنتُ أفكّر في الأمر تمامًا. تابعت دوناتيين. يمكنك الذهاب للبحث عن

آنيت دومِرك صباح الغد في قريةِ بلويغ، فأنا أعتقد أنها مناسبةٌ لتكون خادمة. هل تجدها جيّدة؟

ارتفعت أكتاف لوارن العالية وقال:

-ما الذي تريدينني أن أجده جيّدًا؟ سأحاول.

-وستنجح، أنا متأكّدة! لا داعي للقلق كثيرًا، فكلّ الموجودات في البلد يغادرن مثلي... حتى أنني بقيت أطول من الأخريات... أربعة وعشرين عامًا، فكّر فقط!

وما تزال تقول بسرعةٍ كبيرةٍ عدّة عبارات، توصياتٍ لم يسمعها وصيغَ استسلامٍ لا تعزّيه. ومن ثمّ جاء صوتها البريتاني الواضح، وانتفخ صدرها بسرعة أكبر في صدارها المزيّن بالمخمل، وأدركت أنّها لم تقل كلّ شيءٍ بشكلٍ صحيحٍ وهمست:

-مسكينٌ يا جان، بأيّ حال!

وأمسكها من خصرها بذراعٍ واحدةٍ، إذ بدت قصيرة للغاية أمامه، وأخذها نحو إفريز المدفأة باتجاه اليسار حيث يوجد سلّم لأمسيات الشتاء. ترك نفسه يتدلّى من على السلّم واستراح على ركبتيه، ووضع على طول كتفه الرأس الفاتن لزوجته مثلما فعل، كما تذكّرت، في إحدى الأمسيات الأولى لزفافهما، عانقها ولم يكن لديه سوى كلمة واحدة يعبّر فيها عن حنانه حينها ووجدها تعبّر عن حزنه الآن: «زوجتي! حبيبتي!». لم يقبّل وجهها، لم يحاول رؤيته حتى، بل اكتفى بالشدّ على قلبه واحتضن -بقوّته الهائلة التي تحرث الأرض- هذه المخلوقة التي كانت ملكه، وكان مشبعًا بحلاوة الوداع الفائقة التي تم قياس وقتها للتوّ. «زوجتي!» كرّر مرّةً أخرى. خُبِس كلّ شغفه في هذه

الشكوى، وغيرته المقلقة، والشفقة التي سببتها كلّ هذه الأشياء المتناثرة في وهج الضوء الخافت: المهد، السرير، الطّاولة، صندوق الملابس وحتى الحظيرة التي جاء منها، على فترات متقطعة، ضجيجُ كتلةٍ ثقيلةٍ تضرب الألواح... كلّ ذلك سيكون حزينًا جدًا بدونها!

وفوقهما انتصبت المدخنة العريضة، السوداء بفعل السخام والمفتوحةُ للضباب النازل ببطء.

حاولت دوناتيين تخليص نفسها ولكنّه لم يرغب في ذلك، لذلك تركت نفسها تهدأ بدورها بسبب الخوف من المجهول. وقال لوارن: «فقط لو بإمكاني رؤية المكان الذي ستذهبين إليه!». لم يعرفا ذلك أيضًا، فقد غادرت فيما بقي هو، وكلّ ما بذلاه من جهدٍ في الذاكرة، وكلّ ما تعلماه من كلمات الثكنات أو من ثرثرات نساء بلويغ لا يمكن أن يعطيهما فكرة، حتى وإن كانت غير كاملةٍ، عن المكان الغامض الذي ستكون فيه دوناتيين غدًا، والدة نويمي ولوسيين وجويل.

بعد وقت طويلٍ دُفِعت الرسالة التي تركوها على الطّاولة بفعل زوبعةٍ من الرّياح وانزلقت، وبدا من خلال فتحة الموقد أنّ السماء كانت بلون الغبار.

-ها قد طلّ القمر من فوق الغابات، وبالتّالي فإنّ السّاعة قد تخطّت العاشرة يا دوناتيين. قال جان.

وخرج كلاهما من تحت الإفريز، هو ليخلع ملابسه ويذهب إلى الفراش، وهي لتعتني بجويل الصغير الذي استيقظ.

وسرعان ما انقلب الليل على الأشخاص الخمسة الذين تحبسهم مزرعة روس غربنيون، ومرّت نجومه واحدةً تلو الأخرى فوق الضباب الذي يبلل

الغابة والربوة التي تسبق الحقل المحصود، واتجهت نحو حقولٍ أخرى ومنازل أخرى مفقودة بين المستنقعات المجهولة. إنّها الليلة العظيمة: الطرق مهجورة، النوافذ مغلقة، وضجيجُ الأمواج البعيدة منضمًّا للقرى حتى منتصف الأراضي، كلّ أفراح البشر غارقة في النفوس وتقريبًا كلّ الأحزان وهمّ القوت الشديد. قبالة الساحل وحده، في جميع أنحاء شبه جزيرة بريتانيا، عبرت أضواء السفن العتمة، غير أنّ الأرض توقّفت عن الشكوى للحظة، وبدت مزرعة جان لوارن صامتة. نام الرجل وقد أقلقته من حينٍ لآخر قشعريرة باردة، وبدت دوناتيين النحيلة بجانبه والمتورّدة بكاملها، عندما أضاء شعاع القمر السرير، شبيهة بتلك الشخصيات المتزاوجة الصغيرة التي ترتدي الأصداف في المتاجر الفقيرة هناك.

---

(1) بالفرنسيّة Cidre وهو مشروبٌ مستخلَص من التفاح يعود منشأه إلى فرنسا، وهو نوعان: كحولي ويعرف باسمه المتداول Cidre، وآخر غير كحوليّ ويعرف بشراب التفّاح أو خلّ التفاح (مترجم).

II

الرحيل

لم يأت الفجر مشرقاً، فالأشرعة التي تغطّي السماء بدت شاحبة، ولا أحد يعلم من أين أشرقت الشمس. منذ ساعةٍ غادر جان لوارن روس غرينيون كي يذهب ويبحث في قرية بلويغ عن عربةٍ تعارُ له وللخادمة آنيت دومرك، فيما ارتدت دوناتيين ملابسها في نفس الوقت مع نويمي التي تبدأ كلّ صباحٍ بمساعدة والدتها. بدت الصغيرة الجالسة على حافّة سريرها شعثاء، وشعرها يتساقط على عينيها نصف المفتوحتين، وبقيت متوازنة، منغمسة بنوبة نومٍ ورأسها مائلٌ إلى الأمام.

وباكتمال جهوزيّتها، وقفت الأم ونظرت إلى أطفالها الثلاثة واحدًا تلو الآخر دون أن تنبس ببنت شفة، وعند أوّل كلمةٍ غزاها حنانها الأموميّ واستولى عليها تمامًا بمجرّد أن قال لوارن: «إنّها الساعة الخامسة صباحًا، ها قد بدأ النهار»، واستحوذت على قلبها فكرة أنّها ستتخلّى عن هؤلاء الثلاثة الذين ولدوا من صلبها، وخاصّة الأخير الذي لم يُفطَم بعد. نظرت إليهم وفي سرّها خوفٌ من عدم رؤيتهم مرّةً أخرى أو عدم إيجاد واحدٍ على الأقل عندما تعود. من يكون؟ لا أحد يجرؤ على الخوض في مثل هذه المخاوف. بدا الطفل الذي ظلّت تحدّق فيه هو الطفل الذي سيصل إليه الخطر المظلم، وبالتفكير في ذلك أخذت الصّغير جويل ووضعته نائمًا على صدرها.

-اذهبي وأعطي البقرة بعض القشّ يا نويمي، فقد سمعتها تبحث عن الطعام. قالت بصوتٍ خافت.

ومبتسمةً رغم كلّ شيءٍ انحنت نحو الرضيع الذي اختفى وجهه بين صدر

الأم الأبيض وثنية القميص المنتفخة، وشرعت شفاهه في امتصاص الحليب بشراهةٍ مع استراحاتٍ تنفسيةٍ. كانت تودّ أن تخبره بالأمر، وقالت في نفسها بشفقة: «خذ كلّ شيءٍ يا صغيري! لن تحصل عليّ الليلة، بل سيعطونك حليبًا لا تحبّ شربه، وأنت تحبّ حليبي، لذا أطفئ عطشك للمرّة الأخيرة!». وعندما تتركها شفتا جويل النائمتان والمنغلقتان على بعضهما كما تنغلق صدفة، كانت تثيرهما بطرف إصبعها، فيستيقظ الطفل ليشرب المزيد من الحياة.

أعادته إلى الفراش، وغير عازمةٍ على تركه رأته نائمًا، وابتسمت له متخلّية عن الأيام الخوالي عندما استولت عليها فكرة الساعة الفائتة فجأةً. دخلت نويمي من باب الحظيرة وفي شعرها نشارةٌ من القش، وهرعت دوناتيين إلى الخزانة حيث تحتفظ بغياراتها وغيارات أطفالها – حفنةٌ من الملابس الصوفيّة مع القليل من الملابس الداخليّة الكتّانيّة الثقيلة – وعلى عجلٍ طوت تنورةً باليةً وشالًا وقميصًا وغطائي رأس داخل منشفةٍ ربطت أطرافها بدبّوسين. كان هذا كلّ ما أخذته معها: أوصتها نساء البلد بترك الباقي في المنزل لأنّ البرجوازيين سيعطونها ما ينقصها، ومن هن أقلّ بؤساً منها فعلن الشيء نفسه.

-اسمعي! قالت وهي تمطّ أذنيها.

توقّفت نويمي التي كانت تجري. ثمّة هدير لعربةٍ تصعد نحو روس غرينيون. اضطر الرجل إلى عبور الجزء المعبّد حديثًا من الطريق على بعد ثلاثمائة متر من المزرعة، وهو ما أعطى الوقت لدوناتيين كي تنهي زينتها. بدت بطلّةٍ بهيّة في فستانها المفضّل المنسوج من القماش الأسود مع ألف طية، وبوشاحها الأبيض المتدلي عند العنق وعلى مؤخرة رقبتها، وكذلك لفافة شعرها الأشقر المشدودة تحت غطاء الرأس ذي الأجنحة العالية.

دخل الزوج وتبعته فتاةٌ نحيلة ومحدودبة بعض الشيء، عيناها شاحبتان قليلاً بلون البنيّ المحروق، ولها من العمر سبعة عشر عامًا لكنّها بدت وكأنّها في الخامسة عشر ليس أكثر، وقالت:

-صباح الخير سيّدة لوارن.

لم تجب دوناتيين، وامتلأت عيناها بدمعتين كبيرتين لدرجة لم تستطع الرؤية بعدها، وقبّلت جويل الذي لم يتحرّك، ولوسيين التي تقلّبت في المهد، وحملت بين ذراعيها نويمي المنجذبة للدموع التي لم تفهمها.

-ستهتمين أيضًا بشقيقك وشقيقتك يا صغيرتي، يا صغيرتي الأثيرة، أليس كذلك؟ لا تركضي معهم بعيدًا، سأعود... وداعًا.

ووضعتها على الأرض، وأخذت حزمة الملابس ومظلّة قطنية زرقاء، ومرت بجوار الخادمة البليدة وصعدت إلى العربة بينما أمسك لوارن الحصان من اللجام...

وبعد دقيقةٍ نزلا المنحدر، ورسم باب المنزل كثقبٍ أسود أسفل سقف القش، مؤطّراً بشكلّ بنّيٍ صغيرٍ غائرٍ في الظل، رؤية طفلٍ كادت أن تُمحى بالفعل. وسرعان ما أخفى منعطف الطريق مزرعة روس غرينيون ولم تعد دوناتيين ترى سوى ريف الجيران اللامبالي، ثمّ ريف الغرباء ومن بعده أشجارًا ودروبَ لا تعرف شيئًا عنها. بدا لوارن أنّه منشغلٌ بالقيادة فقط. اتّجها نحو محطّة إرميتاج، الأقلّ بعدًا عن روس غرينيون، في غبار الصباح الهادئ والمنخفض بشدّةٍ لدرجة أنّ أطراف أشجار البلوط والتفاح بدت مدخّنة وغائمة.

وقبل وصولهما إلى القرية ببضع مئاتٍ من الأمتار، انحنى جان لوارن عند

إحدى التلال نحو زوجته وقبّلها على جبينها وقال:

-ستكتبين لي حتى أعرف مكانك، سأعتني بك يا دوناتيين...

فأجابت المرأة الشابة:

-بكلّ تأكيد، وستطلعني بدورك على أخبار البلد.

ولم تقبّله بسبب التقاليد الصارمة لبريتاني، وبسبب الخوف من العيون التي تحدّق بين سيقان الأشجار المقطوعة.

توقفت العربة أمام المحطة عندما وصل القطار التاسعة والنصف من بونتيفي، وكان لديهما ما يكفي من الوقت للركض إلى المنضدة، الرجل الذي يحمل الصندوق الأبيض، والمرأة التي تحاول فتح المحفظة ذات الإطارات النحاسية البالية.

ومصطدمَين بالمارّة رغم عدم حمل أيّ منهما شيئًا، سرعان ما عبرا غرفة الانتظار وصعدت دوناتيين إلى المقصورة الثالثة التي فتح بابها أحد الموظّفين.

-وداعًا! قال لوارن.

لم تسمعه. رأى الوجه الورديّ الجميل، والعيون البنية والأجنحة المتحركة لغطاء الرأس تمر خلف نافذة العربة المتلألئة، وظل ساكنًا على الرصيف متأمّلاً ابتعاد القطار الذي يحمل دوناتيين.

III

درب باريس

عاد وحيدًا وهو يفكّر فيها، في المقابل كانت عينا دوناتيين، والتي ترامت في زاويةٍ ورأسها متّجهٌ نحو الريف، مليئتين بالدموع، وسرعان ما تشتت انتباهها بالمحادثات المتبادلة حولها، بالفرنسيّة أو بالبريتانيّة، وبأسماء المحطّات الأولى بعد إرميتاج التي يُنادى بها على طول القطار. كان الناس يصعدون العربة ودائمًا تتعرّف عليهم بعض الشيء، أو استطاعت معرفة الإقليم الآتين منه، أحيانًا من تسريحات الشعر لدى النساء وأحيانًا بالطريقة التي طَرّزت أو زُركِشت بها سترات الرجال. إحدى النسوة المجاورات، والتي كانت ترتدي غطاء رأس لامبال(2)، سألتها ما إذا كانت مسافرةً بعيداً.

-نحو باريس. قالت دوناتيين.

-ربّما لكي تعملي مرضعة؟

-بالضبط! وقد تركت أطفالي نويمي ولوسيين وجويل. والأخير ليس كبيرًا، تخيّلي!

وتحدّثت عن كلّ واحدٍ منهم للمرأة التي أشفقت عليها، وشعرت بالارتياح لتمكّنها من الحديث إلى أمّ أخرى فهمت الأمر. كما أنّ حداثة الأشياء أثارت اهتمامها أيضاً ووفّرت لها أسبابًا للدهشة فيما يتعلّق بالجهل التام الذي وجدت نفسها فيه، بحيث لم ترَ ركنًا من ريف إيفينياك أو من ريف بلويغ. على سبيل المثال، لاحظت أنّ قطعان المواشي تصبح أكبر حجمًا كلّما ابتعدت عن روس غرينيون، وأنّ أعشاب الجولق تتناقص والأسيجة الشوكيّة تتزايد. في

رين كان عليها التوقّف لثلاث ساعات. هناك أخذتها امرأة رأتها متعبةً ومنبهرةً من مسير العربة، ودعتها لتناول كوبٍ من القهوة في مطعمٍ رخيصٍ بالقرب من المحطّة. كانت امرأة عجوز سمينة، بهيجة ومتجعدة الملامح، من تلك الطبقة العاملة الطيبة التي تؤمن على الفور بصدق المارة من خلال السحنة، وتكرس نفسها دون أملٍ في الربح بدافع الحاجة.

زارتا معاً كنيسةً ومنتزهًا عامًا، وأحبتا بعضهما البعض قليلًا عندما افترقتا. انتاب دوناتيين انطباعًا غامضًا بأنها كانت تحتضن بريتانيا المألوفة والمفيدة، وأنها كانت تودعها عندما غادرت، لتركب قطارًا جديدًا، المرأة العجوز التي بكت على مصير هذه الشابة الغريبة التي كانت تخاطر بعيدًا عن الريف البريتاني.

سرعان ما انتهى عبور منطقة المروج الصغيرة، التي تحدّها أشجار الدردار، وحقول الحنطة السوداء المقطوعة بصفوفٍ من أشجار التفاح. ولج القطار في أرياف مايين وسارت نضرة المكان، وظلّت دوناتيين تتأمّلها لفترةٍ طويلةٍ وجبينها متّكئ على الزجاج وشاردة الذهن بالظنون السيئة التي أوحتها إليها أشياء مشابهة لتلك التي عرفتها على الدوام. لكن حلّ الليل عند ثلثي درب هذه الرحلة اللامتناهية، واندفعت الأبخرة الأرجوانيّة، التي شكّلت تاجًا حول الأفق منذ الصّباح، إلى جميع الاتجاهات في وقتٍ واحدٍ مضيّقة دائرتها ومحاصرة القطار المتسارع. عندها شعرت دوناتيين أنّها على وشك فقدان آخر دورٍ لعينيها وعقلها. لم تفقه أبداً هذا الألم، لكنّها ألقت نظرةً مرتعشةً على جيران الصدفة، وسرعان ما أعادت عينيها نحو الحقول التي غزاها الظل. حسبت أنّه ليس هناك سوى أربعة أطوال من التحوطات مرئية، أكثر من ثلاثة وأكثر من شريطٍ ضيّقٍ، تحد المسار.

حاولت أن تميز شكل المساكن النادرة المنتشرة في هذا الظلام والتي يمكن التعرف عليها من خلال وهج النوافذ المنخفضة، وودّت لو تدخل إحداها لتجد نفسها فجأةً محصّنةً في دفء الغرف بين أولئك الذين يسهرون هناك معًا. انتهى كلّ هذا تمامًا. أغمضت عينيها وفكّرت بفزعٍ في الطريق الطويل الذي ما زال يتعيّن عليها قطعه في الليل، على هذه القضبان الحديديّة حيث انتقلت كلّ صدمةٍ بضجّةٍ مؤلمةٍ إلى صدرها المتورّم بالحليب، وبين جيران الصدفة المهتزين معها والمتخدّرين جرّاء اهتزاز العربة.

عندما فتحت عينيها مرّة أخرى، رأت في الطرف الآخر من المقعد، تحت الضوء المريب للمصباح، امرأةً شابّةً تمسكُ بذراعها حزمةً بيضاء صغيرةً ملقاة على ركبتيها. كان الفستان مرفوعًا ومشدودًا بطيّاتٍ منتفخةٍ على جانبي الخصر، وإصبعان في اليد الأخرى ما زالا يمسكان بصحيفةٍ مطويّةٍ سعت المسافرة إلى قراءتها، والتي بدورها انحنت شيئًا فشيئًا نحو الحزمة البيضاء التي تكاد تغطّيها.

نهضت دوناتيين واقتربت منها عدّة مرّاتٍ دون جرأة، فرفعت الغريبة رأسها بقلقٍ بادئ الأمر، ومن ثمّ لانت نظرتها وابتسمت أخيراً في وجه دوناتيين وغطاء رأسها الريفي. خمّنت السؤال الصامت، ودفعت الصحيفة جانبًا وقالت:

-إنّها طفلتي، فتاتي الصغيرة، وهي نائمةٌ منذ المرور بلومان.

-وأنا أمٌّ أيضًا، وذاهبة إلى باريس كي أعمل كمرضعة. قالت دوناتيين.

وسحبت رسالة الطبيب من صدارها.

-أووه! بولفار مالزِرب! لا بدّ أن يكونوا أثرياء. قالت المرأة الشابّة.

-أتظنين ذلك؟

-أجل، فهذا واحدٌ من أرقى أحياء باريس. أنتِ محظوظة.

-وأنتِ، أذاهبةٌ أيضًا إلى باريس؟ قالت دوناتيين.

-لا بل إلى فرساي، على مقربةٍ من هنا.

-ربّما تجدين زوجك؟

ترددت الغريبة بعض الشيء، ومن ثمّ أجابت بنفس صوتها اللطيف لكن بنبرةٍ خافتة:

-ليس لديّ زوج.

حينها كلاهما لاذتا بالصمت كما لو أنّ هذه الكلمات أمست نوعًا من الوداع الحزين لبعضهما البعض، ولم تحاولا التحادث أبدًا. استعادت دوناتيين مكانها في زاوية العربة. كانت منغمسةً في الأفكار الجديدة التي تدور في عقلها لدرجة أنّها حتى لم ترَ الغريبة وهي تنزل في محطة فرساي. من بين هذه الأسرار القصيرة التي أثّرت بها للحظةٍ، ثمّة شيءٌ واحدٌ بقي ونما بداخلها وملأها ببهجة الزهو، ألا وهو فكرة الاقتراب من باريس والثروة التي ستلاقيها أخيرًا. باتت الآن قريبة جداً من المدينة الغامضة العظيمة، والتي دلّت على نفسها بالاحمرار المتدلّي من السماء نحو الأمام، وبآلاف المصابيح الغازيّة الضئيلة كالشرارات والتي اخترقت الليل لثانيةٍ من فتحة التلال. شعرت دوناتيين بالمدينة قادمة وثمّة هزّة بكيانها كلّه، تلك الفتاة ابنة البحارة التي كانت عليها، وعلى طريقتها الخاصة شعرت بنفاد صبر آبائها وأعمامها المسافرين عبر المحيطات العظيمة والذين احترق دمهم الخفيف والحالم بشهوة الأراضي الجديدة، فهي مثلهم تركت خلفها منزلًا فقيرًا وحياةً رتيبة

وأعباء حزرها السفر منها. ومتقلّبة في كافة الاتجاهات بتحويلات المسارات المتقاطعة، ومنبهرةً بالفوانيس المضاءة بالقرب من المحطة. وثملةً بضجيج العجلات وصفير الآلات دون أن تتذكر التعب أو حتى ذلك الريف الصغير البعيد الضائع بين الجولق، ابتسمت وجذدت شبابها، وتجفلت وأثيرت بموجٍ غريبٍ من الفرح والأمل.

ثمّة خادمة عجوز تنتظرها على الرصيف، وثمّة عربة مركونة لأجلها في الساحة. صعدتا إلى العربة وقد وضعتا حزمة ملابس المرضعة بينهما. كانت دوناتيين تجيب عن أسئلة رفيقتها في السفر بسرعةٍ دون أن تتوقف عن النظر من النافذة إلى الشوارع الطويلة والكثيرة التي بدت وكأنها تهرب من تحتها. على الرغم من الساعة المتأخرة من الليل، فباريس بدت مضاءة وضاجّةً ومليئة بالحياة. عندما عبرت نهر السين اعتقدت أنها شاهدت ألعابًا نارية من أجمل ما رأته على الإطلاق، عندما عبرت ساحة الكونكورد سألت مشيرةً إلى الشانزليزيه: «هل هي غابة؟» منازل ضخمة بأبوابها الكبيرة المغلقة بحثت عنها من بعيد وتبعتها حتى اختفت، كما لو كان كلّ واحد منها «ملكًا لها». كان قلبها ينبض ويخبرها أنها في بيتها، في موطن سفرها. كما كان والدها يعرف واحدًا أو اثنين في مغامراته.

وعندما سمعت انفتاح باب خشب البلوط الصلب في القصر حيث كانت ستخدم، وعندما استنشقت الهواء الدافئ في الرواق، المفعم بعبق الأزهار الدفيئة، عقب خروجها من العربة، بدت متألقة للغاية وخاليةً من بؤس الماضي كلّه، حتى أن المرأة التي رافقتها اتكأت من نافذة المقصورة وقالت:

-لقد أحضرت امرأة ستعتاد على ذلك بلا شك!

واختفتا عبر درج الخدمة.

في الوقت نفسه تقريبًا، وقبل أن تكتسي أرض بلويغ في بريتاني بضوء النهار، انتصب قوام جان لوارن السامي على تلّ روس غرينيون، فهو لم ينم، بل فضّل المغادرة على الفور للعمل والتجوّل في الغابة بدلًا من البقاء بهذه الغرفة التي ما تزال مفعمةً بحضورها.

خلال وقتٍ قصيرٍ، والمعزقة على كتفه، تأمّل في الليل تحته كما لو كان بإمكانه قياس البقعة التي فعلها، وما لبث أن تنهد وسار فوق المنحدر.

---

(2) بالفرنسيّة Lamballe، بلدةٌ فرنسيّة قديمة واقعة في إقليم كوت دارمور ضمن منطقة بريتاني (المترجم).

IV

المستنقع المطهّر

مرّت ستّة أشهر، وتساقطت أمطار الربيع من السماء متكرّرةً وسريعة في حبيباتٍ ضيّقةٍ نضحت فوق الأرض وعلقت بسيقان القمح النابتة على شكل قطرات ناعمة.

كان لوارن عائدًا من الغابة حيث يعملُ منذ نوفمبر، وهناك اشتغل كأجيرٍ لتقطيع الأخشاب خلال يومين في الأسبوع. انتهى العمل وغادرت آخر عربةٍ من الحطب عبر الطرقات المتعرّجة، وفي الجوّ الهادئ كان بإمكان المرء أن ينصت لصدى الأجراس البعيدة المبهِجة كما لو أنّ الملائكة تؤذّن لعيد الفصح بوقتٍ أبكر بقليل. اجتاز الطريق الطويلة التي جرّدها من سيقانها الصغيرة والتي خلقت فجوةً بين المستنقع وحافة الشتلات الجديدة. كان يفكّر في الماضي وتحديدًا منذ أن غادرت دوناتيين.

مضى شتاءٌ قاسٍ بشدّة، وكان من الضروريّ أن يحرث الحقل لوحده بالمعزقة لزراعة القمح هناك، وكذلك شريطًا تحت أشجار التفاح لزراعة الحنطة السوداء وآخر في الأرض الصخرية والعجفاء لزراعة الشوفان. في الماضي لم تكن دوناتيين تساعده كثيرًا، إذ كانت ذراعها لا تقوى على استخدام المعزقة، كما أنّ الاعتناء بالأطفال أسرها في روس غرينيون، ومع ذلك فقد كانت مفيدة لعمليّة البذر. لا يمكن للمرء أن يجد في أبرشيّة بلويغ يدًا أكثر رشاقة وأكثر ثقة من يدها، فعندما تنفتح الأثلام تأتي إلى الحقول ثلاثة أيّام، خمسة أيامٍ أو ثمانية إذا لزم الأمر، وترفع أحد أطراف مئزرها حتى الحزام وتملؤه بالحبوب، وتمشي دون استعجالٍ وتفتح أصابعها: تسقط

البذرة داخل القناة الطويلة، وحيثما تمرّ دوناتيين ينبت الحصاد بشكل أجمل من أيّ مكانٍ آخر.

هذا العام كانت سيّدة روس غرينيون بعيدةً عندما بُذِرت الأرض: لم تكن على وشك العودة بعد عندما أظهر القمح رأسه الأخضر والحنطة السوداء أوراقها الصغيرة الوردية مع الأشعة الأولى لشهر مارس، كما أن المنزل شعر أيضاً بغيابها. لم يكن لدى أنيت دومرك أيّ نسق عمل، فكلّ ما تحبّه هو التمشي على الطرقات مع الأطفال الثلاثة، تاركةً المزرعة بمجرّد ذهاب لوارن، لتلتقط التفاح أو لتتحدّث مع سكّان القرى. لم يستطع المزارع أن يعتاد على طبيعة هذه الفتاة الماكرة التي لا تردّ عندما تتعرّض للتوبيخ، ولا تخبره أبداً عما تقوم به وتتكلّم بتلميحِ أشياءَ فوق سنّها عن نساء القرية، لكنّه أبقى عليها لأنّها تتقاضى القليل مقابل عملها.

يا له من شتاءٍ حزين، خاصّةً بسبب الأفكار السريّة للغاية التي لا بد للوارن أن يبقيها بصميمه! في الواقع فإنّ هذه الفتاة قد أشارت له بأنّ دوناتيين لا تكتب له كثيرًا. ربّما لا يكون قد لاحظ ذلك بحيث أنّ انتباهه مشتّتٌ بسبب كثرة العمل ولا يملك أيّ وقتٍ للمقارنة، لكنّ كان ذلك صحيحًا بأنّها تكتبُ قليلاً ورسائل قصيرة جدّاً! دائمًا ما كان يحملُ معه آخر رسالةٍ وصلت، وأحيانًا تكون واصلةً من ثلاثة أسابيع أو أربعة، وعندما يكون بمفرده ولا أحد من روس غرينيون يستطيع رؤيته يعيد قراءتها محاولًا تخيّل الأشياء التي سجّلتها: « أخذتني سيّدتي إلى السباقات حيث هناك الكثير من الأشخاص الذين لم ترهم من قبل؛ ذهبت إلى المسرح في الصباح مع أونورين كبيرة الخادمات». كما أنّها لم ترسل الأموال سوى مرّةً واحدةً فقط منتصف شهر يناير، عندما هدّد وكيل الآنسة بنوات بالاستيلاء على كلّ شيء في

روس غرينيون مقابل السنوات الثلاث المستحقّة عليها، وفي الأسبوع التالي غادر السيّد غيّون بعد أن حصل فقط على نصف الإيجارات المتأخّرة وقد أعطاه موعدًا نهائيًا حتى آخر يوليو لتسديد كلّ شيء. وعندما غادر المزرعة قال: «كان من الأفضل أن تبقي زوجتك معك أو أن تجد لها مكانًا في الريف. هل تعرف حتى أين تعيش؟ وشابّة مثلها؟!». رفع لوارن عينيه البريتانيّتين المتأمّلتين إليه اللتين لا تفهما سوى سكّان البلدة على المدى الطويل، ولكن بقي في قلبه انعدام الثقة، وحزنًا مشوّشًا وندمًا آخر، إضافةً إلى أشياء كثيرةٍ أخرى.

كان الرجل قد خرج من الغابة واستدار من زاوية المستنقع ليستأنف طريقه مباشرة نحو روس غرينيون، ولأوّل مرّةٍ ضربه الظلّ الكثيف الذي تلقيه كتلة الجولق والوزال على الأرض. من الواضح أنّها، ومنذ قطعه للأجمَة، قد اكتسبت قوّةً جديدة، ومن الممكن أن يُرى الطول غير المتناسب التي وصلت إليه بشكل جيّد، حيث بلغ طولها قدمًا واحدًا فوق رأس المزرعة. توقّف جان لوارن ولاحظ بعنايةٍ عمق الغابة بين الأغصان التي يبعدها بمرفقه. ما تزال الأرض تحملُ آثار الأثلام القديمة، وبدت جرداء، متصدّعة ومجوّفة جراء الحشرات وفئران الحقول، ومن مكانٍ إلى آخر تلألأت جذوع الوزال الخضراء وجذوع الجولق الرماديّة بالنسغ المتشابك والمجذف كالأشجار، بحيث أنّ آخر سعافِ أشجار النخيل في الهواء الطلق هناك قد انتفخت بأشواك شاحبةٍ وبراعم حمراء بالفعل.

-كان أجدادنا يزرعون المستنقع. ماذا لو جرّبت؟ سيكون هناك ربح. قال لوارن في نفسه.

تراجع عشر خطوات للوراء ونظر إلى محاصيله المزروعة، وحاول أن

يتخيل الحصيلة الجميلة الذي ستشكّلها حقوله عندما يختفي المستنقع، وفكر، لأنه كان ما يزال يفكر فيها:

-إنّها دوناتيين التي ستتفاجأ!

بمجرّد دخوله إلى الغرفة في روس غرينيون، قامت أنيت دومرك الجالسة على كرسيّ منخفضٍ قرب الموقد بالتلويح له بيدها على المنضدة.

-أخيراً وصلت رسالةٌ يا سيّد لوارن، سيّدتنا كتبت لك.

وعلى الأرض ألقى المذراة الحديديّة التي يحملها على كتفه وأمسك الرسالة بشغف، وعاد ليقرأها على العتبة حيث ما يزال ضوء النهار ساطعًا. وفي لحظةٍ أخرى وجد أنّ دوناتيين أجابت بإيجازٍ شديد، لكنّها قالت له: «أنا سعيدة، إلا أنّني أفتقد الأطفال. قبّلهم جميعهم من أجلي». وكان بحاجةٍ شديدة لأن يكون سعيدًا، وشعر أنّه مدفوعٌ بشدّةٍ تجاهها في ذلك المساء من خلال النيّة التي أوحت بها لدرجة أنّه لم يرَ سوى شيئًا واحدًا: كتبت، لم تنسَ روس غرينيون، وتوسّلت إلى الأب تقبيل الصغار.

مفعمًا بالرضا، وواضعًا رسالة دوناتيين في جيب سترته، دخل المنزل وقبّل نويمي ولوسيين اللتين كانتا تلعبان بالقرب من الخزانة، وقال وهو يحملهما واحدةً تلو الأخرى:

-آه! يا صغيرتاي! إنّني موصى بتقبيلكما لأجل والدتكما! أتتذكّران ماما دوناتيين جيّدًا؟

وبينما كان ينحني نحو جويل النائم في حضن الخادمة، سمع ضحكة آنيت دومرك الصغيرة الحادّة وشعر بحفيف شعرها الأشعث، والذي غالبًا ما لم تكن تربطه تحت قبّعتها، وسألته:

-إذًا السيّدة لوارن أرسلت أخبارًا سارّة؟ هل ستعود بلا شك؟

وباستقامةٍ نظر لوارن إلى الأسفل من قامته الطويلة نحو الخادمة التي رفعت وجهها إليه حيث تجولت ابتسامة غريبة، وإلى عينيها المقلقتين حيث ارتجف البريق وتحرك كما يتحرّك في عيني قطة.

-لِمَ تريدينها أن تعود؟ لم تنتهِ بعد من رضاعتها. قال المزارع.

-اعتقدت... لقد بدوت مسرورًا للغاية! استأنف وجه أنيت تعبيره المعتاد عن الملل الغامض، وقام لوارن، الذي أراد الوثوق الليلة بشخصٍ ما – أمرٌ نادرٌ في حياته – وأن يشعر بقليلٍ من الأمل والفرح، بالابتعاد عن هذه المخلوقة وجلس على حافَة خشب السرير عند الجانب الآخر من المدفأة، ونادى ابنته البكر نويمي الواعية بعض الشيء ووضعها بالقرب منه وقال لها بلطف:

-لديّ فكرة يا صغيرتي. هل تعرفين المستنقع جيّدًا؟

-أجل يا أبي.

-سأقطع كلّ شيءٍ ولن أترك الحشيش الضار نابتًا. كلّ هذا سأقوم به بمفردي، سأحرث الأرض وسأبذرها، وكلّ ذلك سينتهي حين تعود ماما دوناتيين. هل ستكون سعيدةً عندما ترى هناك حقلًا للبطاطا أو لبذور اللفت؟! أعتقد أنّني سأبذر بذور اللفت. أتعتقدين أنّها ستكون سعيدة؟

-والأعشاش؟ سألت الطفلة.

-سأعطيك إيّاها.

ورأى وميض البهجة الذي عبر عيني نويمي الكبيرتين، وراوده انطباعٌ سريٌ

أنّ الأخرى الغائبة هي التي تبتسمُ له لتمنحه الشجاعة. اهتمّ بالطفلة وهو يمرح معها، رغم أنّه بطبيعته قليل الكلّام ورصينٌ في المداعبات، وحاول إضحاكها كي يرى سطوع البريق.

في اليوم التالي اتّجه نحو المستنقع في منتصف الخط المظلم المتوج بالذهب الذي صنعه أمام روس غرينيون، ووقف في قاع الخندق المعشوشب الذي يسدّ الجوالق، وأحنى ركبتيه على الضفَة وأخذ خطّافه المشحوذ مؤخّرًا، ورفعه حتى أقصى طولٍ لذراعه وأسقطه على شجيرةٍ صلبةٍ وملتويّةٍ ذات الفروع الضخمة والطافحة كشوكة القش. بدا أن المستنقع يهتزّ في كلّ مكان، وهبّت عصفة رياحٍ على أطرافه وفرّ اثنان من الشحارير وهما يصيحان. سمع لوارن انسلال ألفٍ من الحيوانات غير مرئيّةٍ التي دخلت جحورها، فابتسم أثناء رفعه لخطّافه وضرب في نفس المكان وكبّر الجرح، فتطايرت نشارة بيضاء وشعر بالكتلة الثقيلة للأغصان تهتز، ليتراجع إلى الوراء وهي تنقلب وتسقط على الأرض بقشعريرةٍ كبيرة، والزهور تسبقها.

صفق الصغار الذين كانوا يشاهدون مع آنيت دومرك من أعلى التل بأيديهم. قطع لوارن الألياف الأخيرة من اللحاء، وألقى بالنبات ودخل المستنقع. وعند الظهيرة بات من المستطاع رؤية دائرةٍ شاحبةٍ في الأدغال السميكة بحجم نصف غرفةِ المزرعة.

تحت أشعة الشمس الحارقة لذلك اليوم وللأيّام التالية واصل لوارن عمله، إذ صبّ عليها غضبًا فريدًا. وعلى الرغم من قفازات جلد الغنم التي يرتديها إلا أنّ يديه كانتا تنزفان من كلّ جانب، وعلى الرغم من اعتياده الطويل على العمل إلا أنه يبدو منهكًا عندما يعود إلى المنزل عند الغسق ويزيل الأشواك التي اخترقت أصابعه واحدة تلو الأخرى. ومع ذلك قال بنوعٍ من الفخر السار:

«يومٌ شاق: وغيره خمسة وأربعون وغيرها خمسون، وسيستمرّ العمل».
نظرت إليه أنيت دومرك دون إجابة، ولم تكن نويمي تستمع، وكانت النار تحتضر تحت الحامل ثلاثي القوائم الذي حمل المرجل، وكرر الرجل دون أي صدى آخر غير فكره الذي ذهب بعيدًا عن روس غرينون: «خمسون أخرى، وخمسة وأربعون أخرى».

بدأت أيّام الصيف الجميلة، واخضرّ الريف حول روس غرينيون، بدت أشجار التفاح ككرات الأزهار التي يصنعها الأطفال من زهور الربيع. خلال النهار ينهبها النحل، وخلال الليل تفوح رائحة العسل وبتلات الورود في الغرفة الحقيرة وتجري تحت الأسرّة. كتب لوارن إلى زوجته التي لم تعد تردّ على الرسائل الأخيرة، فأزعجه هذا الصمت، وخشي أن تخمّن آنيت دومرك ما كان يفكّر فيه لأنّها بدت وكأنّها تتجسس عليه. هكذا كتب أنّه سيكون عامًا جيّدًا لعصر النبيذ على أمل أن تشكر دوناتيين السعيدة على هذا الخبر، لكن لم يأتِ شيء.

أحرز تقدّمًا كبيرًا في تطهير المستنقع، ولم يعد هناك سوى حواف من الجولق على طول الغابة عندما بدأ الشوفان من وراء أشجار التفّاح في التحوّل إلى اللون الأشقر. نباتاتٌ خفيفة، بذورٌ فُقِدَت بسرعة! تخلّى لوارن عن الخطّاف وأخذ المنجل، وبدورها سقطت عرانيس الذرة كما سقط المستنقع فجرى إصلاح وقفتها بأحزمة القش، وتفتحت ملايين الأزهار من الحنطة السوداء. كانت أيّام يوليو الحارقة تثقل خواصر الرجال المتعرقة التي ثناها الحصاد وكانت الأمسيات طويلة. ومع ذلك لم يمض وقت طويل حيث كان لوارن ينتظر تلك الرسالة التي لم تأت، فكلّ يومٍ يأمل بذلك وهو ساهرٌ حول منزله حتى يطفو الظلام بكامله على الحقول والغابات. ظلّ لمدّة أربعة أشهرٍ

دون أن تصله رسالةٌ من دوناتيين، لذا حاول أن يجيب على من يستجوبه: «سمعت أنّها ما تزال بخير»، وهو ما كان صحيحًا، لأنّ ابن عمٍّ لها يعمل في تجارة البيض والدواجن قد مرّ بروس غرينيون عند عودته من إيفينياك حاملًا معه هذه العبارة من والدي دوناتيين «المقيمين في مولان هاي» كما قال. ولكن لم تأت كلمةٌ واحدةٌ لتعزية مطهّر المستنقع، قاطع أحزمة القش والزوج الذي بكى بصوتٍ خفيضٍ في الليالي القصيرة محمومًا من التعب والأحلام.

V

الحجز

قبل أيّامٍ قليلةٍ من نهاية يوليو عاد الوكيل، والذي جاء خلال الأسبوع الفائت لإخطار لوارن لدفع متأخّراته، لمصادرة الأثاث نيابةً عن الآنسة بنوات، وبمجرّد أن رآه لوارن على الطريق وهو يصعدها رفقة شاهدين من سكّان البلدة باتجاه منزل روس غرينيون حتى توقّف عن جزّ القمح الناضج والذي لم يجزّ منه سوى ثلمٍ واحدٍ فقط، وغرز طرف منجله في الأرض وذهب نحو طرف المستنقع ليستند عند جذع وزالةٍ ضخمة، إحدى الشجيرات الأخريات التي بقيت منتصبةً على سفح الغابة. وهناك انتظر طاويًا ذراعيه ومحدّقًا في المزرعة بأكملها، تلك الأربعة هكتاراتٍ حيث بذل الكثير من العمل والكثير من البؤس، وكلّ ما يحملُ له المودّة في العالم وما كان يملكه على أمل.

ترك الوكيل الرجلين المرافقين له أسفل التلّ وسار باتّجاه المزرعة، وبسترته البالية وبقبّعته اللباد المتشققة بدا بهيئةٍ فقيرة كالفلاح الذي جاء ليطرده، يجولُ قليلًا فوق الأثلام ويرفع رأسه النحيل المحاط بسالفين أبيضين في بعض الأحيان، ليرى ما إذا كان لوارن سيسمح له بالمسير إلى نهاية الحقل ودون أن يكلّف نفسه عناءَ اتخاذ خطوةٍ واحدةٍ للأمام. بيد أنّ لوارن ظلّ بلا حراك، وفقط عندما لم يعد بين الرجلين أكثر من عرض ثلمين من المستنقع استقام، بضربةٍ من كتفه ارتجفت الوزالة بسببها، وقال مصرًّا أسنانه:

-إذًا عدت للاستيلاء على أملاكي؟

-أجل، وقد أُرسلت من قبل الآنسة بنوات...

-أنا لا ألومك، فأنت تبلي بلاءً حسنًا بحيث أنّها وظيفتك. قاطعه لوارن. لكنّني أريد أن أخبرك بشيءٍ حتى تحكم أنت الرجل. انظر إلى الأمام، يسارًا، يمينًا، وصولًا إلى الجسر!

نظر الوكيل بذهولٍ، أوّلًا إلى هذا الفلاح العظيم الذي لم يكن يشبه المدين كما يشبهه الآخرون، ومن ثمّ إلى الأرض العارية التي نشأت منها جذورٌ حادّةٌ مقطوعة بالمنجل.

-عملت ثلاثة أشهر في هذه الأدغال التي أكلت يدي. انظر خلفك الآن إلى قطع الخشب التي قطعتها هذا الشتاء! انظر مرة أخرى إلى قمحي الناضج والحنطة السوداء! لن تقول إنني كسول أليس كذلك؟ لن تقولها؟

-أبدًا؟

-حسنًا! فعلت كلّ هذا من أجلِ أطفالي وأيضًا من أجل زوجتي التي تعيش مع البرجوازية في باريس. أنت تفهم، أليس كذلك، أنّها لا تستطيع السماح لي ببيعها الآن كالمتسوّل؟

-بكلّ الأحوال عليها أن تدفع. قال الوكيل.

-كم من الوقت ستعطيني أيضًا؟

-اليوم هو الثلاثاء يا سيّد لوارن، وسأعلن البيع يوم الأحد في الثامن من الشهر.

-ستدفع لك، سأرسل لها رسالةً وستجيب. قال لوارن.

وأثناء كلامه ارتجف جسده كلّه وقال: «ستجيب» بصوتٍ منخفضٍ مشوشٍ بالدموع، ومع ذلك لم يكن يبكي، واكتفى برفع رأسه قليلاً نحو روس

غرينيون. لم يعد الغريب قادرًا على رؤية عينَي لوارن، وكان على وشك قراءة شيءٍ من إجراءاته عندما شعر أن يد المزارع تهبط عليه بشدّة.

-لا تقرأ أوراقك، فلن أستمع لأيّ شيءٍ ولن أوقّع على أيّ شيء. قال لوارن. أعلم أنني مدينٌ بأكثر مما أملك للآنسة بنوات وللعديد من سكان بلدة بلويغ الذين منحوني الفضل. فلتأتِ إليّ لوحدها.

-إنّني بحاجةٍ إليك يا سيّد لوارن.

-لا لست بحاجةٍ إليّ. ستأخذ كلّ ما تجده لتسجّله على دفاتر ملاحظاتك: السرير، الطاولة، البقرة...

-لكن لديك الحقّ بالاحتفاظ...

-أقول لك بأن تسجلّ كلّ شيء. قال المزارع مهتاجًا ومشيرًا إلى روس غرينيون. ستسجّل الكراسي والمذهّبات وملابس الزفاف والمئزر الحريريّ الموجود في الخزانة...

-سيّد لوارن، لم أرَ أحدًا...

-ستسجّل غطائي الرأس اللذين اشترتهما لنفسها قبل أن تغادر من أموال خياطتها، وعجلة الغزل التي تتدلّى من العوارض. كلّ هذا جاء إليّ من دوناتيين، وإذا لم تجب، يجب أن تفهم أنت الوكيل الآن أنك تعرف ما فعلته من أجلها، وأنني لا أستطيع الاحتفاظ بأي شيء من الأغراض التي أخذتها من يدها. لا، الحقيقة أنّني لن أبقيها كبيرة مثل قلبي الموجود هناك. سجّل كلّ شيء!

هزّ الوكيل كتفيه متخيّلًا بؤسًا فوق المألوف، ومتأثرًا بشكل غامض دون

أن يدري ماذا يقول، ابتعد وهو يطوي أوراقه.

-ثمّة شيءٌ واحدٌ أريد أخذه، ألا وهو الصورة المعلّقة على الحائط، فلا أحد له الحق بها. قال لوارن.

أومأ الرجل برأسه دون أن يلتفت وتابع باتجاه روس غرينيون، وتسلّق الدرب بألمٍ شديد. وعادت الصغيرة نويمي الواقفة عند المدخل وهي تصرخ من الخوف، وبخطواتٍ طويلةٍ وصل لوارن عن طريق المعبر إلى قرية بلويغ.

من البيوت الأولى عندما شوهد مسرعًا، وعيناه إلى الأمام مباشرةً كرجلٍ يحلمُ ولا ينتبه إلى طريقه، خرجت ربّات البيوت على عتبات الأبواب. عُلِم أن الوكيل قد اتجه إلى روس غرينيون. لم تقل العديدات منهنّ شيئاً، وافترض جوّاً من الشفقة بمجرّد مرور لوارن، فيما بعضهنّ الأخر، خاصّةً الشابات منهن، تغامزنَ بأصواتٍ خافتة. حدث حفلٌ من الغيبة والتلميحات التي ارتفعت من خلفه كالغبار، إذ كانت أخبار دوناتيين، الأخبار التي يجهلها، قد سرت عبر القرية وأثارت فضول الناس عند مرور الرجل. لم يستطع سماع أيّ شيء، وكان كذلك فقط حتى مفترق الطرق عندما استدار لوارن للذهاب إلى مكتب البريد، إذ قالت زوجةُ الخباز المتزوجة حديثًا والخفيفة بكلّامها بصوت عالٍ بعض الشيء داخل مجموعة:

-مسكين! سيكون قد علم أنّ الطفل قد مات، وأنّ دوناتيين...

وعند اسم زوجته بدا لوارن وكأنّه خرج من الحلم، وبدت النظرة التي ثبّتها على هذه البائعة الصغيرة غبيّة جدّاً من الدهشة لدرجة أنّها احمرّت خجلًا، حتى جناحي غطاء رأسها، وعادت إلى متجرها. تردد المزارع للحظةٍ وكأنه سيتوقف، لكن الرجال الذين اجتمعوا هناك، والذين يعرفهم جميعًا، أداروا

رؤوسهم على الفور وافترقوا حتى لا يقترب.

«مات الطفل!» ظلّت هذه الكلمة محفورة في قلب لوارن. «مات الطفل!» متى مات؟ لا شكَ أنّ الأمر متعلّق بالطفل الباريسي، بالطفل البرجوازي الذي تعتني دوناتيين به. لماذا لم تكتب هذا له؟ ولماذا لم ترجع بما أنّه مات؟ هل سمِع بشكل صحيح، أم أنّ الطفل قد مات للتوّ وأنّ دوناتيين في طريقها للعودة؟ ولكن لماذا قالت الخبّازة « مسكين!»؟ على الأرجح، ومع ذلك... أجل، مات الطفل لتوّه... لم تكتب دوناتيين شيئًا لأنّها تتعذّب لرؤية رضيعها المريض، أو أنّها كتبت للآخرين خوفًا من أن يعاتبها زوجها... عتاب! أوه لا، لن يرسل لها شيئًا من هذا، إذ كان يعلم أنّ عليها الاعتناء بالصغير المتوفّي بأفضل ما تستطيع! ... أرادت أن تخبره بنفسها كيف حدثت المحنة دون أي خطأ من جانبها... لقد أرسلت للتوّ خبر عودتها. الرسالة... ربما كانت دوناتيين نفسها في طريقها إلى المنزل... «مات الطفل... مات الطفل!»...

هذه الأفكار خطرت في ذهن لوارن الواحدة تلو الأخرى ورفضها جميعها، بعضها لأنّها تتهم دوناتيين، وأخرى لأنّه شعر في نظرات الناس المحرِجة أنّ الويل كان عليه. «مات الطفل!»

بدا المزارع شاحبًا للغاية عندما طرق شباك مكتب البريد، حتى أنّ الموظّفة الشابّة سألته:

-هل ثمّة مشكلةٌ لديك يا سيّد لوارن؟

-لا يوجد سوى الحجز.

-أوه! الحجز، حدث أكثر من ذلك. حُجِز على أملاك والدي وفيما بعد حصل على أعمالٍ أفضل بكثير، لا تقلق هكذا.

ومن أجل لا شيء في العالم، لم يكن لوارن يريد الاعتراف بالشك المروع الذي يحمله، لكنه راقب هدوء الموظفة ووجهها الجميل من خلال النافذة، وشعر ببعض العزاء لعدم رؤية أدنى تعبير عن السخرية لديها. وكتبت له البرقية:

تم الحجز على كلّ شيءٍ في روس غرينيون، وكلّ شيءٍ سيُباع. أتوسّل إليك إرسال الأموال الأخبار.

جان

أعادت قراءتها ودفع لها، وقالت بهدوءٍ بينما كانت ما تزال تنظرُ إليها:

-هذا كلّ شيء.

أُغلِقت النافذة، وركض جان لوارن من خلالِ شارعٍ لا يعيش فيه سوى الفقراء ويشرف على الريف مباشرةً.

عاد إلى روس غرينيون حيث كان الوكيل وشهود الحجز يغادرون المنزل، وعندما عبروا العتبة استقبلوا المزارع الذي صعد الطريق الضيّق على جهة اليسار مترنّحًا. لامس لوارن الحافة المخملية لقبعته وتوقف للسماح للرجال بالمرور وقال للوكيل:

-هل أخبرتني أنّك حدّدت نهار الأحد في الثامن من الشهر لعمليّة البيع؟ لكنّه موعدٌ بعيدٌ جدًا، هل يمكنك تحديده في الأحد القادم؟

-هذا ممكنٌ بالمعنى الدقيق للكلمة، وهذا لأنّك موافقٌ ولا يوجد الكثير من الأغراض. أجاب الوكيل.

-بحلول يوم الأحد سيكون لديها الوقت للرد، وسأعرف مستقبلي. تابع

لوارن.

هذه الكلمة التي فتحت على المجهول جعلت من الشاهدين في بلوزتيهما واللذين تولّيا القيادة يستديران، وشككا لمدّة دقيقةٍ في وجه لوارن الخشن وبدا أنّ هناك شيئًا ما مضطربًا في وجوههم اللامبالية. استمر هذا لوقتٍ قصيرٍ جدًا، إذ سرعان ما رنّت أصواتهما في أسفل المنحدر، ومن بعدها على الطريق الحجري، وضحكا ضحكةً مشتركةً بسعادةٍ كبيرةٍ.

بدا المنزل في روس غرينيون مهجورًا، وكان لوارن شبه راضٍ عن عدم مقابلة الأطفال ولا أنيت دومرك هناك، فقد رأى أنّ لا شيء قد تغيّر، وبإرهاق أكثر مما لو كان قد عمل في الحصاد ألقى بنفسه على كومة من القش في مؤخرة الإسطبل. كانت البقرة نائمة أمام الرف الفارغ، والذبابات تطنّ وهي تطير فوقها داخل شعاع النافذة المنخفضة، كما أنّ حرارةً ثقيلةً ومسكرةً قد تجمّعت تحت الإطار المثقل بالأغصان والأعمدة وأقفاص الدجاج غير المستخدمة، وأحياناً تتسبب في فرقعة أجزاء من اللحاء المحموم. نام لوارن لعدّة ساعاتٍ واستيقظ على شعور يدٍ أخرى أصغر حجمًا مسترخية على يده. ومندهشًا نهض ولم يعرف من الذي لمسه، أكانت أنيت دومرك الجالسة بالقرب منه، أو نويمي التي كانت تمسك ركبتيها. يبدو أن الخادمة تلعب مع الطفل.

-ما الذي تفعلينه هنا؟ سأل المزارع.

وضحكت تلك الضحكة المزيّفة التي أقلقت لوارن.

-أنا؟ جئت لأخبرك أن عصيدة الحنطة السوداء باتت جاهزة منذ أكثر من نصف ساعة، وبما أنك نمت جيدًا فقد انتظرت: لقد تجاوزت السابعة.

-كان بإمكانك البقاء في الغرفة ومناداتي. قال لوارن أثناء نهوضه.

تبعته بعينيها دون أن تتحرك وهمهمت وشفتاها شاحبتان بالكاد تتحركان:

-علاوةً على ذلك فإنني حزينة لأجلك يا سيّد لوارن.

لم يجب بشيء، وبدا أكثر هدوءًا من المعتاد أثناء العشاء وأمضى وقتًا طويلًا في الخارج يتجوّل أثناء الليل، وعندما ذهب إلى الفراش أمسى كلّ شيءٍ يستريح في روس غرينيون. استجابت أنفاس الأطفال الناعمة من سريرٍ إلى آخر، وأنصت لها المزارع لساعاتٍ وهو غير قادرٍ على النوم بين الستائر التي جرى الاستيلاء عليها وباتت على وشك أن تباع. اندهش من سماع تنفس الخادمة بالطريقة نفسها، وبدا له عدة مرات أنه في الزاوية المظلمة، حيث كان سرير أنيت دومرك، عينان مفتوحتان - عينان كنقطتين صفراوين - تحدقان في وجهه.

بالكاد ظهر في روس غرينيون خلال الأيام الثلاثة التالية، ولم يأكل سوى القليل من الخبز الذي قطعه وابتلعه وهو واقف. قضى وقته يسير على طول الطرق، خاصّة تلك في بلويغ، وعبر الحقول وخلف الأسوار، يرتقب مرور ساعي البريد أو المرأة نصف العطشانة التي تنقل الأخبار بين القرى والمزارع. مرّ ساعي البريد وحده وهو غيرُ مدركٍ للألم العميق الذي يراقب تحرّكاته. هل سيشاهد سقف القش لمنزل روس غرينيون من بعيدٍ كشخصٍ من المقرّر أن يتوقّف قريبًا ويقيس مسافاتٍ معروفة؟ هل سيرفع الغطاء الجلديّ لحقيبته قبل أن يصل إلى المنعطف؟ هل سيستدير بين شجرتي الغبيراء السقيمتين اللتين كانتا تدلّان على مدخل المزرعة؟ لسوء الحظ! مشى ورأسهُ منحنٍ بخطواته المتعبة والمتواصلة باستمرار، ومرّ بشجرتي الغبيراء كما لو أنّه يمرّ بأشجارٍ أخرى، وواصل طريقه نحو السعداء الذين ربّما لم ينتظروا مجيئه

ولن يبتهجوا به. عندها بدأ لوارن يأمل مرّةً أخرى أن يسلك طريق المنزل شخصٌ غريب، رسولٌ من أينما كان، حاملًا الأخبار وعارفًا محنة المزارع، إلا أن العربات خبت دون أن تبطئ، والمشاة استمرّوا في طريقهم.

ومع مرور الأيّام أصبح موقف أنيت دومرك أكثر جرأة، فالخادمة باتت أوّل من يتحدّث إلى لوارن في اللحظات النادرة التي قابلها فيها، ولولا تلك الشعلة الصغيرة الكائنة على الدوام في أعماق عينيها لقيل إنّها تأخذ نصيبها من القلق القاتل للمزارع. كانت تشفق عليه بتعالٍ، وتتنهّد عندما يعود إلى المنزل مع حلول الظلام بانفعالٍ شديدٍ لدرجة أنّها لا تجرؤ على سؤاله أيضًا. وجدها مستعدةً للقيام بأعمالٍ بعيدة من أجله في المزارع حيث كان لوران مدينًا بعددٍ قليل من أيّام العمل المتراكمة. وقد ذهبت إلى حدّ الردّ عليه – لأنه انحنى بنفسه ليستمع إليها الآن بعد أن فقد الأمل – بكلماتٍ لم يكن سيّد روس غرينيون يحتملها من قبل، إذ قالت له:

-آه لو كنتُ مكانها، لما أنقصت عليك لا المال ولا الأخبار.

وترك الخادمة تتهم زوجته.

بات من المؤكد مساء السبت أن دوناتيين لن تنقذ روس غرينيون أبدًا، إذ انتهى اليوم بسحر الصيف البريتاني الذي يبردُ فجأةً بنسائم البحر وتلوّنت السماء بالذهبي الفاتح، كما حرّكت الغابة أغصانها وغسلتها بأمواج الرياح الدافئة التي رفعت الأوراق المنهكة، ومرّت الغيوم بسرعةٍ كتيجان السعادة دون أيّ تظليل، وخرجت نسمة حياةٍ قويّةٍ من الهاوية وجابت الأرض. دخل لوارن قابضًا قبضتيه وعازمًا على أمرٍ خطير، إذ كانت له عينان غاضبتان لم يسبق لأنيت أن رأتهما.

استغرق الأمر شهورًا من القلق وثلاثة أيام من العذاب لإحضاره إلى هذا الحد من استجواب الخادمة وإخضاع شرف دوناتيين لحكم امرأة. الآن ضاع كلّ شيء، لذا أراد أن يعرف. وقال لها:

-تعالي!

كانت أنيت دومرك قد تجهّزت لعودة السيّد، إذ ارتدت أفضل فستان لها وغطاء رأسها المصنوع من الموسلّين الرباعي، والذي تدلّت منه خصلات شعرها الصفراء. اقتربت من لوارن الذي جلس على السلّم الموجود على يسار الموقد، في نفس المكان الذي عانق فيه دوناتيين تلك الليلة لوقتٍ طويل، ووقفت بجانبه ويداها ممدودتان ومشبوكتان بمئزرها، والتقت نظراتهما، نظرات الرجل الخشنة للغاية، ونظرات الخادمة المشحونة بالشفقة، وقال:

-لا شيء! إنّها لا تجيب: هل تفهمين لماذا؟ هل تعرفين؟

-سيّدي المسكين، غدًا سيُباع كلّ شيء. قال مراوغة.

-ستباع، هذا لا يهمني الآن بل هي، أين هي الآن؟ ما الذي تقوم به؟ لربّما علمتِ ما هي الأسباب.

-يعتقد الناس أنّها لن تعود يا سيّد لوارن. كما أنك قد تجد شخصًا ما يقرضُك ما تحتاجه، فليست قلوب الجميع قاسية كقلب زوجتك. لديّ خالٌ غني، وهذه الليلة سأذهب لأطلب منه المال حالًا، وسأعود وستبقى في روس غرينيون...

وفصلت يديها الواحدة عن الأخرى واضعةً إحداهما على كتفِ لوارن العظيم، وأضفت عيناها المعنى الحقيقي للكلمات التي قالتها عندما كشفت عن أسنانها:

-وأنا أيضاً سأبقى معك...

ونهض دفعةً واحدةً وقد فهم هذه المرّة، وقال:

-آه! ابنة الحرام. أطلب منك الأخبار، وسأبذل حياتي للحصول عليها، وهذا ما وجدتِه لتجيبيني! أنت لا تعرفين شيئًا وقد كنتُ متأكّدًا! اذهبي!

وتراجعت للوراء وقالت وهي تبتعد متراجعةً نحو الطاولة:

-تمامًا، تمامًا، هي ابنة الحرام والجميع يعرف ذلك! لقد مات الطفل ولم تعد مرضعة! لقد غيّرت مكان...

وشحُبت الخادمة وباتت مجنونة بغضبها.

-آه! تريد أخبارًا عنها ولديّ إيّاها! لقد استقرّت في الدائرة السادسة مع الخدم والسائقين، وتستمتع وتكسب المال لنفسها فقط...

-اذهبي يا أنيت دومرك! اغتاظ الرجل واندفع نحو الأمام ليطردها. اذهبي بعيدًا.

غير أنّها بقفزتين أصبحت في الخارج، وسمع لوارن صوت ضحكاتها الحادّة وهي تصيح:

-لن تعود أبدًا! أبدًا! أبدًا!

ولثانيةٍ أخرى تحدّت المزارع الذي جمع حجارةً ليرميها عليها كما يُرمى الكلب، وقفزت فوق أجمّةٍ من الوزال وهربت عبر الممر، قبل أن تختفي حول المنعطف في الطريق.

تجمّع الأطفال الثلاثة الخائفون في زاويةٍ من الغرفة وهم يبكون.

-اهدأوا أنتم الآخرون! قال لوارن.

واندفع إلى الداخل وسحب من الحائط الإطار الكرتوني الصغير الشبيه بالحراشف والذي يحتوي على صورة دوناتيين، وفتح الباب ونزل مسرعًا. وفي باحة لا هوتيير، المزرعة الصغيرة الأقرب إلى روس غرينيون، رأى امرأةً هي أخت المزارعة قبالتها تنمو صغار الدجاجات.

ومن فوق الحائط قال:

-من أجل حبّ الله يا جين ماري، اذهبي واعتني بأولادي الذين هم وحدهم! كلّ شيءٍ سيباعُ غداً وعليّ أن أسافر الليلة...

وبمجرّد النظر إليه شعرت بعينيها مليئتين بالدموع، فلم تسأله شيئًا وأجابت بالموافقة، أمّا هو فقد غادر على الفور، وألقى بنفسه في الغابة على بعد أمتارٍ قليلة. كان يعرف المساحات، وأرشد نفسه إلى أشجار البلّوط العتيقة التي كان شكلها مألوفًا له، وعبر في وسط الغابة لكي يسير بشكل أسرع.

وهبط الظلام من السماء التي ما تزال ذهبيّة اللون، وهبت الريح في أمواجٍ طويلةٍ نذير هطولِ أمطار، ومن ثمّ ابتعدت مع صوت المحيط، المسافر الوحيد مع لوارن في الغابة المهجورة. أمّا المزارع فأنزل قبّعته نحو جبينه ومضى إلى الأمام مباشرةً.

لعل فكرته الوحيدة التي عنّت عليه في ساعة التخلّي هذه هي الهرع نحو والدَي دوناتيين في مولان هاي، واللذين منذ زفافه لم يرهما سوى مرّةً واحدةً ولم يولد بينه وبينهما أيّ عاطفة. كان الأب يحتقر ملّاك الأراضي، فيما الأم قد رفضت زواج فتاة جميلة كدوناتيين من رجلٍ فقيرٍ كلّوارن، ولكن

في المحنة التي سقط فيها لوارن فإنّ أدنى فرص المساعدة أخذت هيئة الخلاص. لم يتوقّع منهما مالًا ولا أخبارًا جديدة، ولكن ارتفع صوتٌ في قلب الزوج العاجز وصاح به:

-اذهب إليهما! سيقولان لك إنّ هذه الفتاة تكذب، وسيجدون تفسيراتٍ يجدها الآباء بسهولة، أولئك الذين رأوا الصغار يكبرون. اذهب إليهم!

ومضى لوارن، وبدأت الغابة تتلوّن بالأسود، وغطّت السحب الضخمة النجوم التي بالكاد ولدت فوق فسح الغابة، وفي بعض الأحيان تطير أسراب الغربان المتفاجئة أثناء نومها وتدور كالدخان. بدا أنّ قطرات المطر الأولى قد هدأت الريح، غير أنّ الليل أصبح أكثر كثافة. وعند مفترق غورلاي الذي تتفرّع منه أكثر من عشر طرق، سلك لوارن المسار الخطأ فتعثّر بضفاف الأخاديد وجذوع الأشجار الملقاة على حواف الأشجار المقطوعة مؤخّرًا، وغالباً ما اصطدم مرفقه خلال التحرّكات المفاجئة لمسيره بالإطار الكرتونيّ الصغير المخبأ في جيب سترته، ومرّت صورة دوناتيين، كما كانت هناك شابة خجولة بعينيها اللامعتين واللطيفتين تحت غطاء الرأس البريتاني، في ذهن لوارن، وفي كلّ مرّةٍ يراها هكذا يتفكّر بقوّةٍ أكبر: «لا يمكن لذلك أن يكون، لن يصدّقا الأخبار السيئة التي تُقال عنك يا دوناتيين!». ومن ثمّ نسي تعبه، والطين الذي أثقل باطن حذائه والمطر الذي لسع وجهه لدقيقة، ثمّ بدأ يشعر مرّةً أخرى أن قدميه تتدحرجان وتنزلقان، وأن الأرض رطبةٌ والماء يتساقط من سترته، وأجبره هطول أمطارٍ أكثر عنفًا على البحث عن ملجأ خلف جذعٍ أجوف على حافة الغابة. تجوّل مرتجفًا من البرد في المستنقعات والحقول الصغيرة المحاطة بأسيجة الجولق بين بلينتيل وبليدران، ووجده الفجر الأول ضائعًا تمامًا في ممرٍ غائرٍ بالقرب من مزرعة فيل هيرفي. وعندما

رأى الرجل أن الأشكال بدأت في الظهور في السماء، حاول العثور على برجٍ وتعرف على برج بليدران، وبين المروج الرمادية كخيوطِ العنكبوت سرعان ما رأى الوهج الباهت لجدولٍ صغيرٍ في نهر الأورن.

كانت الديوك تغنّي عندما طرق على باب منزلٍ يقع على ضفّةٍ من الطين القديم، أسفل بقليلٍ من الموضع حيث يمر الأورن بسرعةٍ بين صخرتين ويواجه قاعًا أوسع المدّ والجزر حفرته. وبعد أربعين عامًا من الملاحة بات والد دوناتيين يصطاد في هذه الترع الوفيرة بسمك البوري والشبص.

سمع لوارن صوتًا داخل المنزل يسأل:

-ما الذي تريده في مثل هذه الساعة؟

ثمّ فتح أحدٌ الباب وخطا خطوةً خلفه.

-هذا أنا. قال المزارع.

لم يجب أحدٌ، وفي الغرفة الواطئة والمسودّة بفعل الدخان، كانت والدة دوناتيين تنهي ارتداء ملابسها بالقرب من السرير في مؤخّرة الغرفة، فيما جلس الرجل أمام النار صامتًا بشكل طبيعي، شأنه شأن العديد من البريتانيين، لينتهي من جذب قوافل ثعابين البحر لديه. اقترب لوارن من جمرات الخلنج المبتلّة التي تحترق بلا لهب، وأثناء دخوله استولى عليه الخوف لمعرفة عكس ما يرادُ قوله. أخذ كرسيًا وجلس تحت الإفريز بجانب البحار العجوز الذي طأطأ رأسه الأزغب كرأس التيس، وأخذ دودةً من الوعاء وعلّقها بأحد خطاطيف الخيط الذي يكرّ على ركبتيه.

مشيت طيلة الليل، أعطوني قطعة خبز. قال لوارن.

وبعد أن انتهت المرأة من دس أطراف منديلها في حزام مئزرها، أحضرت شريحةً من الخبز وحدقت متحدّيةً بمزارع روس غرينيون المنحني نحو النار، وكانت نحيفةً وذات ملامحَ منتظمة وبشرة ذابلة، وسألته:

-لأجل المال جئتَ إذاً؟

وأثناء أخذه الخبز أجاب بلطفٍ شديدٍ ولكن دون أن ينظر إليها:

-أبداً، بل إنني معذّبٌ بسبب دوناتيين التي لا تكتب على الإطلاق.

هل كان يأمل أن يقول أحد الوالدين «لكنها كتبت إلينا!». كفَّ عن الكلام قليلًا وأضاف:

-عندما كانت لديكم وبالقرب منكم، هل كانت تحب اختلاق الأعذار؟

-نعم كانت تحب ذلك، ومنذ أن تزوّجت لا بدّ أنّها لم تفعل شيئًا، المسكينة. قالت المرأة العجوز.

-ألم تجدوها مطيعةً لكلامكم؟

-لم أقل لها الكثير لإزعاجها، ووالدها لم يكن هنا أبدًا.

-أتعتقدان أنّها قادرةٌ على كلّ ما يقال عنها؟ لأنكما تعرفان ما يقال عن دوناتيين؟

وفي الضوء الباهت الذي شرع بإضاءة الغرفة لاحظ لوارن عيني المرأة العجوز، تلك العينين السوداوين اللتين تشبهان عيني دوناتيين، عندما قالت لا، وأجابت رافعةً صوتها:

-تعرفُها أفضل منّا يا جان لوارن، فهل أتيت هنا لتوبيخنا على ابنتنا؟

-أبداً لا أقصد الإساءة إليكما. قال لوارن.

-إذًا لماذا تتحدّث عما هو قبل زواجكما؟

-لأن العديد من الأفكار تأتي عندما يكون المرء غير سعيدٍ يا سيّدة لو كليش، لكنّني أبحث عن شيءٍ واحدٍ فقط: لماذا تخلت عني؟

-لو كانت سعيدةً معك لما فعلت ذلك يا جان لوارن.

-أنا الذي كنت لأجلها دائمًا! كيف يمكن أن يكون ذلك؟

-إن لم تكن قد أطعمتها بشكل أفضل!

-سيّدة لو كليش، لقد عملت بجدٍّ من أجلها لدرجةِ أنّ يديَّ عبارة عن ألم.

-إن لم تكن قد ألبستها كما لبست في فتوّتها!

-ألبستها بأفضل ما أستطيع وأحببتها بكلّ جوارحي.

-لو لم تنجب منها ثلاثة أطفال، أبناء بؤس حقيقيون، بحيث لا يمكن تربيتهم! أتعتقد أنّها تريد العودة؟ هي تعرف ما الذي ينتظرها.

-لا، هي لا تعرف! قال لوارن وهو ينهض ويضع شريحة الخبز التي بالكاد قضمها على المائدة. الخبز الذي تقدمه هنا باهظ الثمن: لن آكلّه أبدًا. سأغادر البلاد!

أمّا العجوز لو كليش الذي استمرّ بإغراء أسرابه، وبادٍ كأنّه غير منتبهٍ للحوار المتداول بالقرب منه، فقد هزّ رأسه عند كلمة المغادرة وكأنّه يقول: «ما الفائدة أن تغادر بلاد بريتانيا لأجل حزن امرأة؟»، وكانت زوجته أيضًا شاحبة جدًا، فبالنسبة لكليهما كان الألم الذي اتخذ هذا الشكل العنيف يستحق نوعًا

من الاحترام. انتظرا كلمات لوارن مثل الوحي.

جال جان لوارن بنظره للحظةِ في زاوية الغرفة حيث تذكر أنه رأى سرير دوناتيين في الماضي عندما وصل يوم الأحد «للدردشة» معها، ومن ثمَ قال:

-بحلول هذا الوقت غدًا سأغادر روس غرينيون، وسآخذ نويمي ولوسيين وجويل ولن ترونا مرةً أخرى!

سقطت بكرة الخيطان واصطدمت الكريات بالأرض، وأصدرت صوتًا صغيرًا ميتًا. ساد صمتٌ وبدا أن الثلاثة مشبعون بهذا المصير كشيءٍ لا مفر منه، واكتفى لو كليش الذي لم يتحدث بعد بالقول دون أن يغيّر موضعه:

-بما أنَك لن تعود يا لوارن، فعلى الأقلَ بإمكانك أكل خبزي، فهذا عن طيب قلب.

-وسيكون هناك أيضًا سيدر جديد. قال الصوت الهادئ للمرأة.

لكن جان لوارن وضع قبَعته على رأسه دون أيّ إجابةٍ على أيّ شيءٍ وخرج من الباب.

ترك هناك ذكريات الشباب والحب المشترك ولم يلتفت للوراء.

بدا أنّ العجوز الذي تخطّى العتبة يفكّر قليلًا في الأشياء العميقة، ومن ثمّ عاود وميض الحياة الظهور في عينيه المحمرّتين: سمع للتوّ دوي التيار في الأورن واستنشق رائحة الطحالب البحريّة التي جلبتها الريح مع المد من شواطئ روزلييه وإيفينياك ودي غيت.

VI

الأحد الأخير في الريف

قرعت الأجراس في الهواء الهادئ والشاحب جرّاء الأمطار الأخيرة، واجتمع سكان بلويغ في مجموعاتٍ حول أبواب الكنيسة وتحدثوا بصوتٍ عالٍ عند انتهاء القدّاس الكبير. وقد انتشر في الشوارع والطرقات عددٌ قليلٌ من الخادمات اللواتي ينتظرن سيّداتهنّ، أمّهاتٌ سارعن لتخفيف العبء عن الرجل الذي يعتني بالأطفال. ذاب صوت القباقيب وانفتاح الأبواب والضحك الخفي واختفى مع وابل رنين الأجراس، وهو ما أخاف لوارن، إذ تجول حول البيوت إلى الشرق خجلًا من ملابسه الملطخة بالطين، وحذائه الملون ووجهه الحزين الفقير الذي شعر به، وعلى عجلٍ نجح بالوصول إلى مدخل طريق بلويغ – مونكونتور دون أن يلتقي بأيّ شخصٍ تقريبًا. وهناك صعد الخطوات الأربع التي تقطع سور الحديقة وسار على الأجمة، ودون أن يطرق الباب دخل غرفة الطعام في منزل الأب هورتييه عميد الساحل السابق، والذي كان مقطوعًا مثل تلك الصخور التي نجد تشابهًا لرجل فيها ومتقاعدًا في أبرشية بلويغ. كان الأب قد أنشد القدّاس للتو ويستريح جالسًا على كرسيّ من القش ويداه متكئتان على الطاولة أمام أدوات المائدة المعدّة لتناول الغداء. وكان ضوء النهار منِ النافذة قد أعمى عيونًا غير عينيه، عيون الصياد مع صفاء مياه البحر تحت الجفون التي سئمت من الفتح.

عندما جلس لوارن بالقرب منه، يمكن للمرء أن يرى هذين الرجلين أنّهما من نفس الطول، من نفس الجنس ومن نفس الروح تقريبًا.

أحبّا بعضهما البعض لفترةٍ طويلةٍ وكانا يسلّمان على بعضهما البعض في

الشوارع دون أن يدور حديث بينهما، لذلك لم يتفاجأ الأب بأنّ لوارن أتى لإخباره بالحكم الصادر بحقّه. لقد استمع إلى كثيرين ولطالما عزّى لهذه المصائب: حداد الأزواج أو الزوجات، الهجر، الموت المبكر للأطفال، اختفاء ربابنةٍ ابتلعهم البحر مع سفنهم، إفلاس أصحاب الثروات، تفكّك الصداقات وعلاقات الحب... لدرجة أنه بقي في أعماق نظرته الواضحة ظلٌّ من التعاطف الذي لم يتلاشَ أبدًا حتى أمام السعيد. شعر جان لوارن بالشفقة من النظرة المصبوبة عليه كالبلسم.

-لست بحاجةٍ لأن تروي لي شيئًا يا جان... قال الأب. هذا مثيرٌ للحزن، لذا لا تقل شيئًا. اذهب! فأنا أعرف كلّ شيء.

-لا أعرف كلّ شيءٍ ولستُ سعيدًا على الإطلاق! قال المزارع. إنّني أتألّم كالذي هناك على الصليب.

وبإيماءة من رأسه أشار إلى صليب الجبس الصغير المعلق بالقرب من النافذة، الزخرفة الوحيدة في الغرفة البيضاء والعارية بالكامل.

نظر السيّد هورتييه إلى الصورة بهيئة التعاطف المتزايد نفسها وقال:

-ليس كلّ امرئٍ يشبهه في الألم يا لوارن المسكين، هل يشبهك في المغفرة؟

-لا أجرؤ على قول ذلك. ما الذي فعلته لتجعلني أسامحها؟

-ما الذي نفعله بأنفسنا يا صديقي؟ ليس سوى مجرد كوننا ضعفاء وسريعين إلى الألم. آه! الفتيات الفقيرات في الوطن يغادرن في العشرين لإطعام أطفال الآخرين! لا يزعجك أنني أتحدث إليك بهذه الطريقة يا جان لوارن، لكنني اعتقدتُ دائمًا أنّه لا يوجد بؤسٌ مماثلٌ لهذا. عندما أرى منازل مثل منزلك، حيث يكون الزوج والأولاد بمفردهم، فإنّني في الحقيقة أقول لك

إن أعظم ما أشعر به هو الشفقة على الزوجة التي رحلت.

-ونحن؟ قال لوارن.

-أنتم أيضًا ستبقون في أرض بريتانيا، في المنازل التي تحرسكم، وما زال لديك قريبٌ منك لتحبّه. لديك نويمي ولوسيين وجويل، ولديك حقولك حيث ينمو خبزك. لقد انفصلت عن كلّ شيءٍ في لحظةٍ وألقت نفسها هناك... إذا زرعت حفنة من حبوب الحنطة السوداء في مستنقعك، فهل تلومها على هزالها يا جان لوارن؟ إنّني متأكّدٌ من أن زوجتك دوناتيين كافحت، وأنّها أغوِيت لافتقارها إلى دعمك ولأنّ ألم الحياة جديدٌ عليها... بحال عادت...

بذل المزارع جهدًا كبيرًا للإجابة فطلعت أوّل دموعه إلى طرف عينيه، وقال:

-لا، لن تعود من أجلي، فقد توسّلت إليها وفضّلت أن تترك كلّ شيءٍ يباع!

-إنّها أمّ أيضًا يا لوارن. قال الأب بهدوء. ربما في يوم من الأيام... سأكتب لها... سأحاول... أعدك بذلك.

-ذات مرّةٍ في غمرة حزني اعتقدت أنّها ستعود لأجلهم. تابع لوارن. دائمًا ما أحبّتهم أكثر مني. فقط سنكون بعيدين.

-أين ستذهب؟

مدّ الرجل ذراعه نحو النافذة.

-إلى فونديه يا سيّد هورتييه، يبدو أنّ هناك عملًا للفقراء عندما يحين موسم اقتلاع البطاطا. سأذهب إلى فونديه.

هذه البادرة الغريبة أبرزت الأفق بأكمله، فبالنسبة إلى لوارن، شأنه شأن العديد من البريتانيين أمثاله، كانت فونديه هي بقيّة فرنسا، البلد الذي ينفتح شرقًا على بريتاني.

-لن يعرف أحد أين يكتب لك بحال عادت.

مرت ابتسامة حزينة كنوعٍ من التعبير الطفولي على وجه المزارع المتألم وقال:

-حسناً، في الحقيقة لديّ صورتها التي لم أرغب في تركها، كذلك لا يمكنني حملها لأنّها ستنكسر في الطريق، لذا أتمنى لو تحتفظ بها. وبخصوص الرسائل التي تتلقّاها منها، ضعها خلفها حتى أكتب إليك، وإذا عادت فستجد على الأقل شيئًا خاصًا بها.

واقترب من المدفأة، وسحب من جيبه الإطار الصدفي الصغير الذي وضع فيه صورة زوجته في اليوم التالي لزفافهما وهي واقفة على الرف.

حاولت يده الخشنة المليئة بالندوب الانزلاق في الزاوية التي شكّلها الإطار الصغير مع الجدار وقال:

-هذا هو المكان الذي ستضع فيه الرسائل خلف الصورة.

كان الأب هورتيبه واقفًا، طويل القامة كلوارن وبكتفين أعرض من كتفيه. هذان العملاقان القاسيان على الحزن خففًا عن بعضهما البعض وتبادلا العناق للحظةِ كما لو أنّهما يقاومان.

-أعدك بكلّ شيء. قال الأب بجديّة.

كثيرٌ من الأشياء التي لم يقولاها ينبغي أن تكون مفهومةً ومتفقٌ عليها من

روحٍ إلى روح. لم يعودا يتبادلان كلمةً واحدة وانفصلا عن بعضهما البعض في الحديقة، ووجهاهما غير عاطفيين كما لو كانا اثنين من المارة في الحياة، بدون ذكرياتٍ وبدون اتصال.

VII

رحيل الرجل

وفي وهج الفجر الشاحب في اليوم التالي، وعندما انفتحت أولى مصاريع النوافذ أمام زقزقة العصافير، عبر رجلٌ بلويغ ليسلك الطريق إلى مونكونتور: إنّه لوارن الذي بيع أثاثه في اليوم الفائت، وقد غادر روس غربنيون قبل أن تتاح له النظر للمرّة الأخيرة إلى أشجار التفّاح والمستنقع والغابة، وأخذ معه كلّ ما بقي له في العالم. سارت نويمي على يساره ومعها حزمة صغيرة مربوطة على كوعها، وكان يجرّ عربةً خشبيّةً صغيرةً حيث يستلقي فيها لوسيين وجويل وجهًا لوجهٍ وهما نائمان، وبينهما سلّة سوداء تخصّ دوناتيين. ومن الخلف برز مقبض المغرفة فوق مؤخّرة العربة الذي كان يضطرب عند كلّ تصادمٍ على الطريق.

لم يكن الكثير من سكّان البلدة قد استيقظوا بعد، وأولئك الذين اتكأوا على أنصاف الأبواب السفليّة توقّفوا عن الضحك وصمتوا، وذلك لأنّ المصيبة صاحبت المزارع المسكين وتضاعفت بداخله.

لم يختبئ لوارن، وبدأ باتباع الطريق المجهول دون هدفٍ ودون عودةٍ محتملة، وأصبح ضالًا لا يتواصل معه أحد ولا يجيبه أحد، لكن شفقة المرشدين العجائز لبسته الآن.

وعندما اجتاز ناصية الساحة حيث يوجد المخبز، خرجت امرأة شابّة من المتجر واقتربت من العربة بصمت، ووضعت رغيف خبزٍ كبيرٍ بين الطفلين. ربّما شعر لوارن أنّ ثمّة ثقل إضافي يجرّه، لكنّه لم يلتفت.

على بعد مئة مترٍ خلال الطريق المؤدّي إلى خارج بلويغ، ثمّة شخص آخر ما زال ينتظر مرور لوارن، إذ ظلّ يسير على طول الحديقة دون أن يرفع عينيه، وطالما أمكن سماع خُطى الرجل الثابتة وصرير العجلات الخشبيّة ظلّ الظلّ العظيم الذي يلوح في الأفق بين جدران التعريشة ساكنًا. لكن عندما كانت مجموعة المسافرين المتناقصين عبر المسافة ونصف مختبئين وراء الأسيجة على وشك الاختفاء، قام الأب هورتييه، وهو يفكّر في الغرباء الذين ضيّعوا دوناتيين وبالعالم البعيد من صغارٍ وكبارٍ تسببوا بمحنة لوارن، برفع قبضته وكأنّه يلعن نحو الشمس المحمرّة بين أغصان الليلك المنخفضة... ثم تذكر ما قاله في اليوم السابق وانتهت إيماءة ذراعه بمباركةٍ للذين يغادرون.

انسحب الرجلُ وراء الأشجار، وكان فرح الصباح النقيّ يغنّي فوق أرض بلويغ، وما من مسكينٍ واحدٍ على الأقل في بريتانيا.

VIII

السفر

ظلّ جان لوارن يسير لساعاتٍ جارّاً خلفه، في عربةٍ خشبيّةٍ صغيرة طفليه الأخيرين النائمين، وسلّة دوناتيين السوداء والمغرفة، والخبز الذي يزن ستة أرطال والذي أُعطي له بدافع الشفقة، ولم يبق من بيته سوى حزنه الذي حمله هو الآخر. اتّجه شرقًا وجسده مائلٌ إلى الأمام، صامتًا وعيناه مرفوعتان نحو الأشخاص الذين التقاهم، ووجهه الضامر اللامبالي بالطريق يقطع الضوء والريح كمقدّمة قارب دون أن تتغيّر تعابيره.

مضى، فيما بعض العمّال في الحقول القريبة من الطريق، رفقاء الشوفان الناضج أو الحرث الأوّل، سألوا بعضهم البعض عندما رأوه مارّاً خلال بداية النهار الرفيعة:

-من يكون هذا؟

-إنّه جان لوارن كما تعلمون، ذلك المسكين الذي حُجِزت أملاكه ومن ثمّ بيعت بسبب دوناتيين.

-نعم، هي التي عملت مرضعة في باريس. لم ترغب في العودة أو إرسال نقودٍ له، أتذكّر جيدًا. إلى أين يذهب هكذا؟

-إلى فونديه حسب رأيي.

-فونديه ليست على الدوام جالبة للحظ.

-ليس دائمًا، لكن اعمل يا بني: بإمكانه سماعك.

كانت حكايته بكاملها التي يتحدّثون عنها.

وفيما بعد قالت النساء القرويّات على عتبات البوابات في وسط القرية:

-إنّني متأكّدةٌ أنّه من بلويغ، ومن زيّه يمكن تمييزه، لكن اسمه هو ما لا أعرفه. إلى أين يذهب وأولاده؟

-إلى الأقارب على الأرجح، لأنّه لا يوجد اجتماعٌ ولا عذرٌ اليوم.

لم يعرفه أحد في الوقت الراهن، واجتاز الدائرة الضيّقة حيث ظهر اسم قريته في الأحاديث وأمسى غريبًا فعلًا. قيل في طريقه فقط:

-هذا من البؤس.

هو نفسه تجاهل الأشخاص والأماكن من حوله، ولم تعد هذه الحقول هي الحقول التي رآها في شبابه، ولا المستنقعات، ولا الغابات ولا مروج أبرشيّة بلويغ، هذه المروج الواطئة المكوّنة من منحدرين عشبيين متصلين بجدولٍ وبالكاد مفتوحة كأوراق كتابٍ مهمل. ثمّة مروجٌ أخرى مماثلة، وغابات أخرى وأحزمةٌ أخرى من الحنطة السوداء حيث تشكلّ ظلال أشجار التفاح جزرًا مستديرة. تمنّى لو كان من بين هذه الأشياء الجديدة التي لم يشهدها أحد ولن يتحدّث عنها أحد، والآن بعد أن غلفته مناظرها لم يعد ينظر إليها. ظلّ عقله في الوراء: لم تغيّر ألمه بعد.

مضى، وتأرجحت سترته القصيرة وقبّعته الكبيرة المزيّنة بالمخمل الأسود مع مشيته، وكانت يده تجرّ العربة. لم يتوقّف طيلة الصباح سوى مرّةً واحدةً لملء قربة الحليب التي شربها جويل. وكانت الحرارة عالية، وكلّ حيوانات الصيف تغنّي فترة الظهيرة. سمع صوتٌ ينادي:

-أنا جائعةٌ يا أبي، أنا جائعة!

هل نسي أولئك الذين اصطحبهم في منفاه؟ توقّف كما لو اندهش ونظر، دون أن يفهم حقاً في البداية، إلى أكبر أطفاله التي كانت تتبعه سيرًا على الأقدام بالقرب من المحور الأيسر للعربة الصغيرة، المحور الذي يزعق عند كلّ منعطف. كانت قد سارت حتى لم تعد قادرةً على ذلك، وأحنت إحدى ساقيها نصف انحناءة بحيث لا شك أنّ التعب آلمها، ووقفت على قدمٍ واحدةٍ كعصفورٍ أثناء راحته. امتلأت عيناها بالقلق من هذا الطريق الغريب، بالأسئلة التي طرحتها على نفسها، وظلّت مبلّلة بالدموع التي لم ينصت لوارن إليها. ثمّة قبّعة دائريّة بقطعة قماشٍ سوداء متلألئة مع نصف دزينةٍ من الترتر المذهّب، كما يرتدي العديد من الأطفال البريتانيين، تحتضن رأس الصغيرة ولا تُظهر سوى حافّة رفيعة من الشعر البنيّ الفاتح والذي يتلوّن بالبنيّ الطبيعيّ بحلول العام الثاني عشر. في هذه اللحظة كانت نويمي ذات مظهرٍ حزينٍ يزيل الطفولة من على وجه الطفل ويحييها ويجعلها تفكر: «هكذا ستكون الأمور يومًا ما».

-أنا جائعة. كرّرت قولها. هل ما زلنا بعيدين جدًا؟ إلى أين نمضي؟

أومأ الأب -الذي انحنى وجثم على ركبتيه ليداعب وجه نويمي- برأسه وأجاب:

-أوه! أجل يا صغيرتي، ما زلنا بعيدين جدًا!

لم يكن يعرف أين يتجه بالضبط، لكنّه شعر أنّه سيكون بعيدًا لأنّه يفرّ من ذكرى فرحه وألمه. كان يبحث عن السلام الذي لم يعد يريده، وعندما لاحظ أن وجه نويمي يتسع بعاطفةٍ ويعترف «لن أستطيع الذهاب معك بعيدًا» ندم

على ما قاله وأردف:

-لن نصل على غفلة، سنرتاح... حسنًا دعينا نرتاح: حان الوقت لنتناول الخبز.

وعلى بعد خطواتٍ قليلةٍ ناحية اليمين ينفتح مسارًا واسعًا كالشارع، لكن تحدّه أشجار الزان التي تتقاطع أغصانها فوق دربٍ مهجورٍ مليءٍ بالأعشاب والطحالب تباعًا. إلى أين يقود؟ أإلى جادة قصرٍ أم مزرعةٍ أم أطلال؟ إنّه ينحدرُ بشكلٍ دائريّ ويمكن تتبع تعقّب موجه المزدوج من الغابة العالية الغارقة بين الحقول ويتلوّن معها بالأزرق. لم يجرؤ لوارن على الذهاب بعيدًا، فربط العربة الصغيرة في ظلّ إحدى أولى الأشجار ووضع لوسيين على الأرض، وتناول الرغيف ذا الستة أرطال وقال:

-لنقم بجولة!

واستلقى أرضًا، كان جائعًا، وهذا ما لاحظه من خلال تناوله للفتات الطريّ من خبز بلويغ. وبسكينه ذي النصل النحيل والمنثني جراء الاستخدام، قطع لقماتٍ كبيرةً له وأخرى أصغر لنويمي ولوسيين اللتين كانتا إحداهما واقفة وأخرى جالسةً قبالته، وكان يطعمهما اللقيمات أحيانًا بكلمة صداقةٍ وأحياناً أخرى بنداءٍ من شفتيه المهسهستين، وذلك حين يستدير رأس نويمي البني أو رأس لوسيين الأشقر نحو الجانب الآخر. نويمي هذه كانت صغيرةً لدرجة أنها، ومن أجل أن تستوعب، توجّب عليه اتخاذ نبرةً مرحةً وأن يبتكر أشياء كلّفه قولها. أظهرت ميلاً كبيراً لتخمين المحنة والتحدّث عنها، وفي إجاباته لها قال لوارن في نفسه: لا ينبغي جعلها تعتقد بأنّه لم يعد لديها أم». وكان يكذب بشكل مؤلم ومحرج للغاية لدرجة أنها استمرت في العودة إلى نفس الأسئلة مرارًا وتكرارًا.

بدأ جويل يصيح في العربة، فقال الأب في نفسه: «كيف سأحتفظ بهذا معي أثناء السفر؟» حمل الرضيع وهزّه على طول ذراعه وهو يتجوّل في الأرجاء، وهو ما نجح فيه، وفي حرارة أغسطس الشديدة على طرف سياج الجولق، بالقرب من الطريق الرئيسي، غفا الأب وأطفاله الثلاثة تحت الطيران المتقاطع للذباب.

الثانية عشر ونصف، ساعة واحدة، ساعة ونصف...

استيقظ لوارن بجهدٍ على وقع صوتٍ عالٍ يسأل:

-من أنت أيّها الرجل؟

وفي الوقت نفسه أمسكت بياقته يدٌ بقفّازٍ لكنّها قويّة.

-هيا، استيقظ! أأنتَ من تخوم المنطقة؟

-لا يا سيّدي! قال لوارن بحدّة.

-من أين إذًا؟

-لا أريد أن أخبرك.

-لا تريد؟

-أبداً.

ونظر الرجلان إلى بعضهما البعض، الأوّل كان جالسًا والآخر توقّف عن هزّ الأوّل وجلس أيضًا، والأخير قد نزل للتوّ من عربةٍ منخفضةٍ مقرونةٍ بمهر. كان ذا وجهٍ مستديرٍ وعينين آسرتين، زرقاء وبنيّة مصفرّة، وبشرةٍ مشرقة، وبمجرّد رؤية خفّة حركاته ورشاقة يده حينما ساعد نويمي على النهوض،

يمكن للمرء التأكّد بأنّه ثري، كما كان يرتدي جوارب صوفيّة مربّعة وسروالًا فضفاضًا، وسترةً من الصوف وقبّعة من القش. اعتقد لوارن في البداية أنّ هذا الرجل الثري يوبّخه على نومه في مكانٍ غير عام وإفساده المشهد مع أطفاله الثلاثة الذين يرتدون ملابس مهترئة وبعربته الخشبيّة الحقيرة، لهذا قاومه بدافع الاستقلاليّة ومزاج البريتاني السيّئ، لكنّه سرعان ما أدرك أنّه كان مخطئاً، فهذا الغنيّ لا بدّ أنّه من البلاد ويعرف تمامًا هذا النوع من الكبرياء. شعر بالشفقة الشديدة حينما أحصى الأشياء القليلة التي تتكوّن منها أمتعة لوارن، وقال على الفور بنفس الصوت الخشن في بداية الحديث:

-لا يهمني إن لم تخبرني من تكون، يمكنك الاحتفاظ بأسرارك وسأساعدك جيدًا دون معرفتها. قل لي فقط إن كنت تبحث عن عمل.

واتجهت أعينهما معًا نحو مقبض المغرفة البارزة من الجزء الخلفي لعربة لوارن الصغيرة، وقال الأخير:

-بدأت الرحلة ولم أقم بتأجير نفسي في أيّ مكان بعد. ولكن ماذا لو كان لديك ورشة بناء؟ ...

-عندي واحدة. انزل الطريق وأخبر المشرف أنّني قمت بتشغيلك.

وتراجع ثلاث خطواتٍ نحو عربته وعاد ليركبها.

-وأيضاً قل لزوجة مزارعي أن تعتني بهؤلاء الصغار وأن تفتح الحظيرة لك.

ولبرهةٍ طويلةٍ تساءل عن العيون الرماديّة المزرقّة والمفعمة بالحزن لجان لوارن، ومن ثمّ هزّ كتفيه قائلًا:

-هاي، ستقول إنّني أعرفك! وكان هذا صحيحًا، فقد أدرك المعاناة التي لا

تنتظر شيئًا من الرجال.

وبعد لحظةٍ أمسى لوارن وحيدًا يقف في الغابة النازلة، فوزّع ماله الذي يحتفظ به في كيس تبغٍ قديمٍ على راحة يده وأحصى أربعة فرنكات وأربعين قرشًا، وهمهم قائلًا:

-هذه لا تساوي شيئًا. ومن الأفضل في الواقع أن أعمل على الفور، إذ من الممكن كسب العيش هنا.

لم يكن يشعرُ بالرغبة إلى العمل وما دفعه إلى ذلك سوى الحاجة. تنهّد متذكّرًا بأيّ حماسٍ قام في الشتاء الماضي بتطهير المستنقع لجعل عودة التي لم تعد أكثر جمالًا وثراءً وبهجةً.

وبعد لحظةٍ شعر برغبةٍ لا تقاوم لإيصال قراره والموافقة عليه، وليكون الاثنان كما كانا من قبل في كلّ مناسبة، ولأنّ نويمي وحدها بالقرب منه يمكنها فهمه فقد انحنى نحوها، وهي التي كانت تحفر في الطحالب على المنحدر لتصنع مغارة. وقال لها:

-أتعلمين ما الذي عليّ فعله يا صغيرتي نويمي؟

وابتسمت له كلّ الفتوّة الواثقة، والقليل من الحنان وحبّ الذات الممتلئ، وهذه الابتسامة رسمت صفاءً دخل روحه مثلما يحصل عندما تبتسم دوناتيين.

-سأتوقّف هنا لعدّة أيّام، ويمكنك اللعب والراحة. هل تريدين؟

وانخفضت الرموش الطويلة فوق العيون البنيّة وأجابت:

-نعم أريد ذلك.

-سيكون لك بيتٌ هنا، أما أنا فسأعمل... ينبغي أن أواصل العمل أليس كذلك؟

-أووه! حتمًا...

لم تعرف بالضبط معنى السؤال والجواب عليه، فقد كان فوق إدراك سنواتها الست، ولكن ابتسامتها اختفت على الفور واستطال خدّاها المبتهجان. فقط عيناها أبقيتها مفتوحتين على مصراعيهما حيث للتوّ استقرّت فكرةٌ دقيقةٌ وترقّب، ومن ثمّ سألت:

-وبعد ذلك، هل سنعود إلى روس غرينيون؟

-لا يا عزيزتي.

واكفهرّ الوجه الصغير.

-إذاً سنجد ماما حيث هي موجودة؟

-ربّما.

-في باريس؟

والتفت نحوها ليجيبها:

-لاحقًا، لن أقول لا... لاحقًا يا صغيرتي.

وقال لوارن في نفسه: «كم هي تفكّر بالفعل! ينبغي الحذر معها! إنّها تعاني كالكبار!». وقال بأعلى صوته:

-هيا يا صغاري! انهضوا واثبتوا! يجب أن نعيش!

وهكذا نزلوا بين أشجار الزان المزروعة فيما مضى لأجل مرور سرايا الجيوش، وابتعدوا خائفين تحت الهراوات المتقاطعة للأغصان، واختلط صرير العربة بعرير الصراصير.

لقد كان أحد تلك الأيام الدافئة والريح التي يمنحها المحيط لأراضي بريتانيا لبدء نضج الحنطة السوداء والتفاح.

وقبل أن ينتهي النهار، وقبل غروب الشمس الذي طال انتظاره في أغسطس، كان لوارن قد شرع في العمل والقيام بالمهمة المطلوبة منه شأنه شأن رفاقه، وهي مهمّة بسيطة. ارتدى القباقيب التي سمح له بائع أثاث روس غرينيون بأخذها، ووقف بين رجالٍ آخرين، حوالي خمسين عاملًا مثله وطوّافين كحالته، وعمل على تنظيف بركةٍ جففها قيظ الصيف الطويل. جرى تنظيف البركة من جانبٍ إلى آخر، وكافحت المجموعة داخل مساحةٍ ضيّقةٍ وسط حوضٍ طيني بحجم عدّة هكتارات، الطريّ والسلس في بعض الأماكن والصلب والمتشقق في أماكن أخرى، والمغطّى بالجذور، بالخشب الميت، بأوراق الخريف الفائت، بالحثالة اللزجة وبمحار المياه العذبة، والمخدوش بزحف الديدان التي سعت للوصول إلى المركز الذي ما يزال رطبًا وشقت طريقها فوق سطحٍ عجيني. كان لكلّ عاملٍ عربة يد، وكلّ منهم داس في نفس البركة وبدأ بنكت الطين بارتفاع قدمين من أمامه بمغرفة، ومن بعدها يملأ عربة اليد ويدحرجها ويذهب لتفريغها عند ضفّة النهر. كان هناك أشخاصٌ من كافّة الأعمار، من كلّ الأقاليم، من كافّة الأزياء وكلّ الأجناس، ذئاب، ثعالب، كلاب، خنازير، قطط النمر، وفي كلّ العيون يقرأ التحذير نفسه: «انتبه منّي!» وكانوا يحفرون أو يرتاحون كما يحلو لهم، حتى دون الاستجابة لملاحظات الملتزم ذو القامة الطويلة والمرتدي لبلوزةٍ والشبيه

بجزّارٍ سمين. كانوا يعرفون بعضهم البعض بالفعل رغم أنّهم تعيّنوا في اليوم الفائت وجاؤوا من جميع أنحاء الأفق، وكاوا ينادون بعضهم البعض، ويلعنون سيقان زنابق البحر، الضخمة بحجم الكابلات، التي عليهم قطعها، ويلعنون الرائحة والسيّد والشمس، وأحيانًا حين يصدمون حنكليسًا بمقبض المغرفة يلقونه في المرج القريب ضاحكين. العديد منهم تركوا العمل دون أن يذكروا السبب وغادروا، فيما الفقراء الحقيقيون يُدفَعون للعمل ويكسبون أجرًا لأجل الآخرين.

أحدهم كان جان لوارن: وصل بخطى بطيئة والمغرفة على كتفه ناظرًا بنفس اللامبالاة إلى البركة التي ينوي النزول نحوها وإلى الرفاق الذين سبقوه، وبعد تبادل ثلاث كلماتٍ مع رئيس العمّال أخذ عربته ودخل البركة. ومنذ تلك اللحظة نكت الطين ورفعه بحركةٍ أكيدةٍ وثابتةٍ كحركة الآلة، وانفتح المنحدر أمامه من زاويةٍ عميقة. ما الذي كان يجبره على القيام بهذا العمل الآن، بدلاً من نشر المحصول وشقّ كتل الأرض البور، حيث لم يعد هناك عملٌ جذابٌ بالنسبة له وبات بعيدًا عن منزله ومن أجل الخبز الذي بالكاد يكفي المرء وحده؟ على الأقل لم يسأله أحد عن اسمه ولم يكلّمه أحد، وكان يتفكّر في الضوضاء كما فعل على الطرقات في وقتٍ سابق، حتى أنّ هناك شيئًا واحدًا أراحه بعض الشيء: في المزرعة استقبلت امرأة عجوز الأطفال وأوصت بهم لدى امرأة شابة: «إنّهم صغارٌ مساكين يا آنا، وينبغي الاعتناء بهم كما نعتني بأطفالنا، ستصنعين لهم العصيدة وستوفّرين سريرًا للفتاتين، وستضعين الرضيع بالقرب منك داخل السرير، لأنّ ثمّة أسفٌ كبيرٌ على الأطفال الذين فقدوا أمّهم». الحقيقة أن لوارن قال، وهو غير قادرٍ على الاعتراف بالحقيقة، أنّهم أيتام، وأثناء عمله رأى مرّةً أخرى فتاة المزرعة الجميلة هذه وهي تحملُ جويل بشعورٍ أمومي مع نسيانٍ ممتعٍ للألم الذي

ستعاني منه. سيكون الصغار سعداء بالطبع! لذلك لم يندم الأب على قبول عرض العمل هذا في بداية السفر.

بالكاد توقّف عن العمل، ومع ذلك شعر بدهشةٍ غامضةٍ حينما رفع رأسه لأنّه لم يجد نفسه تمامًا خارج البلد المألوف لديه. وراء القصب الذي يلفّ البركة بحلقته الباهتة ارتفعت الأرض قليلًا وعلت المروج من جميع الجوانب مختلطةً بالمستنقعات والأدغال والجذام الباهت أو البنّي، وكذلك مساحاتٌ واسعةٌ تجتازها الأغنام والرياح وتسدّها من مسافةٍ بعيدةٍ دروب أشجار الزان كجروف الصخور المستديرة، وخلف إحدى هذه الدروب يحتجب القصر والمزرعة المبنيين من حجر الغرانيت نفسه والقديمين والملتصقين ببعضهما البعض. في هذا المنظر الشبيه بخليجٍ هجره البحر وحفر قاعه، شعر لوارن أنّه ليس غريبًا. بلا شكّ لم تعد هيئة الأشياء التي تركها هناك ولكن كان لها نفس طريقتها في سلب القلب، وفوقها نفس النسمة المنتظمة التي تستيقظ وتغفو مع المد والجزر. أجل، ما يزال هناك بعض الراحة من منزله حوله، وآمن لوارن في البداية أنّ هذا سيساعده على العيش.

ولكن هبط المساء الأوّل، هبط سريعًا وبائسًا، وتصاعدت الأبخرة لملاقاته من البركة والأراضي المجاورة، ومع تلاشي الضوء أصبح هذا المكان شديد البرودة ومعدمًا لدرجة أنّه قوّض لوارن. ومتكئاً على مغرفته حدق في الضوء الأحمر المنتشر فوق خشب الزان والذي ينحدر ببطء خلف أعمدة الدخان، وعلى هذا الجانب باتجاه الغرب كانت مأساته أيضًا. في مكانٍ ما من الليل كانت هناك مزرعة صغيرة فوق تلّة، وهناك عائلةٌ أخرى تقطنها الآن. عائلةٌ أخرى! مسكينٌ يا لوارن! كم هي قريبةٌ منك، بمقدور طفلٍ سلك دربها! يمكن أن تصلك رائحة حنطتك السوداء، وسيحصدونها أولئك الغرباء! هم

حيث كنت وينامون حيث نمت. انظرا أليست هذه غابة بلويغ أمامك؟ أليس هذا المستنقع؟ أليست هذه هي الساعة التي يفتح فيها الباب للعامل المنهك خلال النهار وتتركك ترى، لمرّةٍ واحدة، الجدران والنار والمرأة الحبيبة طيلة حياتك؟ مسكينٌ يا لوارن! قبلات الماضي تنزف كالجراح، والخوف من الغد ينزل مع الظلمات، وقوة المغفرة تستنفد بالنهار...

قال لوارن لنفسه: «لن أضطرّ للبقاء هنا لفترةٍ طويلة، فهذا المكان يذكّرني بالمنزل!».

-إذًا أنت حزينٌ أيّها البريتاني؟ قال صوتٌ ما.

وببطءٍ أدار لوارن رأسه، وعلى حافة العشب رأى عاملًا مكشوف الوجه يُعرف بالبولوني ويرتدي سترة زرقاء من القماش متروكةً للعمل، وسأله:

-وكيف عرفت أنّني حزين؟

-بقيت هنا فيما ذهب الرفاق! اذهب أيّها الأخرق!

تلقّى البريتاني الإهانة بهزّ كتفيه، فيما ابتعد الرجل بسرعةٍ وكلتا يديه في جيبي بنطلونه الواسع من جزئه العلويّ كثوبٍ نسائي. في الواقع فإنّ هذه الظلال السائرة على شكل مجموعاتٍ باتّجاهات تنحرف أكثر فأكثر، عائدة لرفقاء العمل. وآخر الجميع خرج لوارن من البركة ومسح يديه ونعليه بحفنةٍ من الحشائش، وذهب ليرى أطفاله في المزرعة ولينام على كومة تبن الإسطبل.

مرّت سبعة أيّامٍ على هذا النحو، وفي الثامن جاء ضبابٌ ساخنٌ قتل الأوراق وأثار غضب الرجال.

في اليوم الفائت وما قبله بدأ البولوني في السخرية مرة أخرى من جان لوارن الذي كان يرفض الانضمام للآخرين أثناء تناول وجبة الغداء ويأكل بمفرده بعيدًا عنهم، والذي لا يضحك على الإطلاق. لقد رأى لوارن أكثر عبوسًا وأكثر صمتًا من الأيام السابقة. ولأنه لم يكن قادرًا على استفزازه أو حتى إغضابه على الأقل، بدأ في التلفيق لأنه لا يعرف شيئًا محددًا عن عابر السبيل هذا الذي لا يتكلم، فقال:

-ها هو العمل نصف المنجز أيها الرفاق. سقيفة جميلة! بالنسبة لي لن أندم على موقع العمل ولا جاري في البركة... لا بد أن هذا البريتاني قد قتل شخصًا ما ليكون في مثل هذه الحالة المزاجية المعكرة، ما لم تكن زوجته...

-اصمت! قال لوارن بصوت منخفض. لكن الآخر تابع متحمسًا أكثر لأنه رأى لوارن يُستفز أخيرًا:

-ما لم تكن زوجته قد تركته!

-لقد توقفت! صاح لوارن.

-لن تقولها بصوت عالٍ أو بشدة لو كان ذلك صحيحًا! رد الآخر. انظروا جميعكم...

لم يكن لدى البولوني الوقت لقول المزيد، فلوارن بعد أن ألقى مغرفته رفع الحزام الجلدي الذي يحمل سرواله وضرب به يده مرتين كإشارة للهجوم، وبذراعيه الممدودتين وبجذعه الذي كبر فجأةً، طغى على العامل الذي أخذ حذره منحنيًا على نفسه، وقبضتاه على صدره وعيناه قد جنتا بالغضب. وعلا ضجيج وصراخ وتحايا وكراهية:

-اقتل البريتاني أيها البولوني، اقتله!

وتبع ذلك صمتٌ عظيم، ففي الباحة بأسوارها الطينيّة كان خمسون رجلًا يرتقبون حدثًا سيّئًا، ولم ينتظروا سوى ثانية فقط. انقضّ البولوني على لوارن ورأسه للأمام ليضربه في بطنه، وبحركةٍ جانبيّةٍ تجنّب لوارن الضربة فانثنت خاصرتيه وترهّلتا، وأمسك بالعدو أثناء مروره من منتصف جسده وانتزعه عن الأرض ورفعه بمعصميه المشدودين وجعله يقفز فوق كتفه، وأرجحه على طول ذراعه ثلاث مرّات – كانت هناك ثلاث صرخات – وألقى به في الطين حيث انعطب الطوّاف ووجهه مواجهٌ للأرض على بعد خمسة أمتارٍ من الحافَة. وعلى الفور التفت لوارن إلى الشهود، وكان العديد منهم يركضون رافعين مجارفهم أو ساحبين سكاكينهم، وقال:

-على من الدور؟

-عليّ أنا! قالت بعض الأصوات.

لكن لم يجرؤ أحدٌ على التقدّم نحو البريتاني الذي نفض أصابعه الملطّخة بالوحل لاهثًا، وكلّ عضلاتِ جسده متوترةٌ ومستعدة للبدء مجدّدًا في انتظار خصمٍ جديد.

وعندما رأى أن أحدًا لم يحضر ولم يجرؤ على مواجهة ذراعيه، حمل مغرفته وعبر الدائرة التي انفتحت أمامه.

-إلى أين أنتَ ذاهبٌ أيّها البريتاني؟ إلى أين؟ سأل رئيس العمّال الذي كان مهتمًا بالمصارعة كمشهدٍ والذي سيستعيد السلطة الآن. تصالح مع زميلك البولوني، وسيعود الجميع إلى العمل!

كان خائفًا بعض الشيء من رجالٍ كرعاة البقر الذين يشاهدون تناطح الثيران من بعيد. لكنّ لوارن تابع طريقه مؤرجحًا مغرفته على كتفه، وصعد

نحو المزرعة، وهو أمرٌ يصعب تخمينه، في ظلٍّ أقوى خلف صفوف الأشجار، وهمهم:

-ينبغي عليّ استئناف سفري، أريد ألا يتحدّث أحد معي عنها. آه! وكأنّها ما تزال تلاحقني! وكأنّهم خمّنوا حزني! أريد أن أرحل أبعد وأبعد!

وحينما قال رغبته، وكان كلّ شيءٍ جاهزًا في المزرعة بالقرب من الباب ذي القوس الغرانيتي المخضرّ من العفن الشتوي، وحينما وُضع كلّ من لوسيين وجويل في العربة، رأى لوارن، أثناء رفعه لقبعته وقول الوداع، تلك الفتاة الجميلة الطويلة تبكي في ظلّ الغرفة. تأمّلت الصغار بحنان، ولا بدّ أنّها أدركت جيدًا إشارات الوداع التي لوّحتها لها لوسيين ونويمي، وتمنّت كثيرًا لو كان الآخر يتكلّم ويجيب، هذا جويل الذي هزّته وغيّرت له ونزّهته، لدرجة أن لوارن لم يستطع سوى أن يشعر بالارتباك والندم والحنان بعض الشيء، وقال في نفسه: «لو كانت والدتهم ما كانت لتتركهم». لكنه وجد على الفور أن هذه الفكرة ليست جيدة، وودّع المزارع العجوز الذي كان الأقرب إلى العتبة، وسحب غصن البندق الذي يعتبر بمثابة مقبضٍ لعمود العربة، وعبر باحةٍ أصمتها السمادُ سَمِعت خطوةً ثقيلةً تبتعد، وأخرى خفيفة للغاية، وصرير العجلة أثناء سيرها.

وفي المساء نام لوارن في مزرعةٍ أخرى أقل كرمًا من تلك التي غادرها للتو، وقد تعرّض للتوبيخ جراء وصوله في وقتٍ متأخرٍ وجُعل ينتظر، ولكنه لم يُطرد. كان هناك خوفٌ من الإذن الذي منحه إيّاه الفلاحين للنوم فوق أكوام التبن، خوفٌ من الثأر، من النار، من الضربات السيئة، ولكن كان هناك أيضًا شفقةٌ مقدّسةٌ من تلك المحبّة الربانيّة التي ما زالت تفتح أبوابًا كثيرةً عند الغسق في الريف الفرنسي. في اليوم التالي، بل في الأسبوع التالي بأكمله،

وجد مكانًا للإقامة فيه. كان يسير باتجاه الشرق دون أن يخبر أحدًا عن طريقه ولا حتى عن سبب هذه الرحلة، إذ كان يقول: «أنا ذاهبٌ إلى فونديه من أجل البطاطا»، وهذا ما كان كافيًا للعديد من الأشخاص الذين سألوه. دائمًا ما كان يُنظر إلى فونديه، أي الريف الفرنسي المفتوح على مصراعيه للشمس، على أنّه بلد الوفرة من قبل أولئك الذين يعيشون في شبه الجزيرة.

ظلّ الطقس جيّداً إلى حدّ ما، وكان لوارن يسافر ليومين أو ثلاثة أيّام ومن ثمّ يتوقّف في مزرعةٍ ما لكسب قوته. وكان أزيز آلات الضرب دائمًا ما يتصاعد هنا وهناك في الصباح، وكلّ ما عليه فعله هو تقديم نفسه والقول: «هل تريدونني؟» ليُقبل من بين مجموعات الرجال والنساء، العديدين كمدعوّي العرس، الذين يغلّفون الآلة ويخدمونها. وفي كلّ مكان، وعلى الرغم من الإرهاق الشديد لمدبّرات المنازل اللائي يتعيّن عليهن إعداد العشاء لكثيرٍ من الناس، فقد استُقبِل الأطفال، ودائمًا ما وُجد هناك شخصٌ ما مستعدٌ بكثيرٍ أو بقليلٍ من السرعة، بكثيرٍ أو بقليلٍ من الرغبة، لطهي العصيدة وغسل الملابس الرديئة للرضيع. ودائمًا تقريبًا يرفض الرجال وهم يرون العربة الصغيرة، فيما توافق النساء ويسمحن بإدخال العربة وإيقافها في موضع أحجار الرحى التي تضطرب بالقرب من أحزمة وعجلات آلة الدرس، ولكن حينما يغادر لوارن المزرعة لا يفوّتن التحذير والتكهّن برؤيتهنّ لجويل:

-ستقتله أيّها المسكين! عندما يأتي الطقس السيئ سترى ما سيحدث! لا يمكن القيام بجولةٍ في فرنسا مع رضيع!

فلا يجيب على الإطلاق.

ومع ذلك كان يحرز تقدّمًا ببطءٍ كمسيرِ الأطفال. بقدر الممكن تجنّب لوارن المدن، والتي كان يخشاها بدافع الجبن لأنّه قليل البراعة في التحدّث، وأيضاً

خوفًا من الشرطة لأنّه شعر بالشك المثقل به والذي يحيط المستقرّ العابرينَ به، فابتعد لأنّه وعند مدخل القرى تظهر لافتةٌ كُتِب عليها «ممنوع التسوّل»، وعلى الرغم من أنّه لم يتسوّل، لكنّه أدرك أنّ هذه النيّة الحسنة التي كان عليه العمل بها لن تؤخذ بعين الاعتبار، وأنّه كان الطوّاف والكائن الغامض للرابطة العظيمة للبؤس والتسكّع والسرقة والشراكة التي يتمتّع منتسبوها بسمعةٍ قديمةٍ وراسخةٍ لا تتغيّر. لقد بات أكثر إثارة للريبة لأنّه أصبح غريبًا أكثر فأكثر عن البلاد.

الحقيقة هي أنّه سرعان ما بدت السترة المضفّرة بالمخمل الأسود، والقبّعة الكبيرة وسروال الدروغيت الأزرق العريض والبالي، شيئًا مثيرًا للفضول، وأشارت إلى أنّ العِرق لم يعد معروفًا في هذا الزيّ القديم. كانت بذور الأرض تتغيّر، والأكواخ الممتلئة بالطين لم تعد تتمتّع بمظهر المسحوق الأرجواني، أو المسحوق الأشقر أو الملح الأغبر كما هو الحال في أكواخ بريتانيا، ولم تعد الأرض أرض زهورٍ بل أرض خضار، والمراعي باتت فارغة والطرقات لا تؤدّي لأيّ مكان، والأراضي الفارغة حيث يكون السيّد غائبًا على الدوام باتت تتضاءل أعدادها، وقلّت آثار هبوب الريح وأشجار الدردار الملتوية وازدادت أشجار السنديان المنتصبة. بل وفوق كلّ شيءٍ لم تعد التلال كما هي. كما لم تعد تبرز صخورها ولا تنفجر سواقيها، ولا تهبّ رياحها الشماليّة الغربيّة وحملت محاصيل لا تُصرف. المزيد من الحنطة السوداء أو أقل بكثير، والجوالق تتضاءل والخلنج يندر ورائحة النعناع تتصاعد، والهواء المالح الذي يصنع المغامرة للرجال لم يعد يهب، والريح تمرّ بشكلٍ متفاوتٍ وصوت المدّ الصاعد جرّاءها قد انقطع والأغنية التي تغنّيها قد تداعت.

كان لوارن يعرف جيدًا أن تلك الأيام بالنسبة له أيّام وداع، فسافر أقل

ونظر حوله أكثر، كما لو كان يبحث في كلّ مكانٍ عن عيون الأصدقاء الذين غادروا.

في إحدى هذه الرحلات البطيئة فوجئ بالمطر الذي بدأ يهطل بعنف، فسعى إلى ملجأ منحدر، وعلى حافّة الخندق وضع العربة والصغيرين اللذين كانت تحملهما. ثمّة جذعٌ مجوّفٌ انفتح لحاؤه المصدوع والميّت بأعلاه بحيث اصطفّت على جانبيه عروقٌ من الخشب الحي. استكانت نويمي ورأسها في الأشواك، وإلى جانبها قليلاً كان نصف لوارن خارج الملجأ وقد أحنى ظهره وحدّق بالعشب منتظرًا نهاية هطول الأمطار. لكنّ عنف العاصفة تضاعف، وضربت الريح المكان وجعلته غير محتمل. امتلأ الخندق بالمياه، ولم تعد الأوراق المبلّلة توفّر الحماية والتصقت الملابس بالكتفين. رأى لوارن أن جويل قد تجمّد فخلع سترته ورماها على الأطفال. للأسف! ازداد البرد في الهواء وأيضًا ارتعاش الأيادي التي أمسكت بالأكمام، وبعد ساعةٍ أدرك الأب حينما أمسك بذراع جويل المتدلّية خارج الصندوق الخشبيّ أن أصغر أبنائه مصابٌ بالحمّى، لذلك ترك سترته بمثابة بطّانيةٍ لحماية الصغار الذين اختبأوا تحتها بالكامل، وسحب العربة من الخندق وتوجّه نحو الطريق الرئيسي. وعلى عكس عادته أراد الوصول إلى القرية التالية وطلب المساعدة لأنّه أصيب بالذعر أسرع من الأم وهو الذي لا يعرف، فيما مشت نويمي في الوحل رافعةً تنورتها فوق رأسها. وتساقط المطر بشدّةٍ لدرجة أنّهما لم يتمكّنا من رؤية سياجين على اليمين واليسار، وكان لدى لوارن فكرةٌ واحدةٌ فقط: «أتمنى أن أجد مساعدةً لطفلي الصغير!».

لم يكن يعرف اسم البلدة التي سيصلها، ولحسن الحظّ بعد ثلاثة أرباع الساعة من المشي رأى كلّاً من نويمي والأب على جانبي الطريق أسطح

المنازل ترتفع وقد غمرتها الأمطار الغزيرة وأحيطت بهالةٍ بفعل ارتطام قطرات المياه بها.

-أخيراً ستدفئين نفسك يا نويمي المسكينة، وسأجد سريرًا لأخيك المصاب بالحمّى!

وكان على وشك الركض محرجًا من سرواله الذي لم يعد ينزلق على ركبتيه. وخلف زجاج نافذةٍ كانت هناك امرأتان تراقبان الجدول الممتلئ والسماء حيث تتقاتل الريح والشمس والغيوم، وعندما رأتا لوارن والحركة التي قام بها كي ينحني نحوهما أسدلتا الستارة. انحنى اتّجاه العربة مرّتين إلى جانبهما وانطلق مرّتين في منتصف الطريق، ووقفت امرأة ثالثة على عتبة منزلها تكشط بالمكنسة المياه التي دخلت منزلها. فهمت بين ضربات المكنسة اقتراب خطر الإحسان، فأخذت زمام المبادرة وقالت:

-ليكن الله معك، ليس بإمكاني أن أعطيك شيئًا.

أمّا لوارن الذي تصطك أسنانه فقد بدأ كلّامه قائلاً:

-هذا صغيري...

-أنا أيضاً لديَ صغار! ارحل بعيدًا! صاحت ربّة المنزل.

ومن بعيدٍ كان هناك نجارٌ لم يتوقّف عن السحج، وكان جذعه مائلًا ومستقيمًا محاطًا بواجهة متجرٍ مقوّسةٍ ومفتوحةٍ على ارتفاع ثلاثة أقدامٍ فوق الأرض. وعندما توقّف الرجل المسكين في منتصف الطريق دون أن يجرؤ على السير في المسافة غير الضروريّة التي تفصله عن العامل، كان لهذا الأخير نظرةٌ جانبيّةٌ وتعبيرًا مبتهجًا يدلّ فقط على أنّه سعيدٌ بالجفاف، ورجلاه في النشارة ولديه عملٌ طوال العام. من المؤكّد أنّه لم يرد الإساءة

إلى هذا العابر النحيل، التائه والشاحب تماماً، الذي سأل:

-هل يستطيع أحد استضافتي هنا؟

-التسوّل ممنوعٌ في البلدة يا صديقي. قال العامل.

وكان له وجه جنديّ سابقٍ أحيل إلى المعاش، مستديرٌ وذو لحيةٍ طويلةٍ، وبشرة وردية مع بعض البقع البيضاء كالبورسلان المزخرف.

-أنا لا أطلب الإحسان، بل لديّ طفلٌ مريض. قال لوارن.

وتسلّل صوتٌ من الغرفة الخلفيّة المظلمة قائلاً:

-هل من الممكن أن يكون ناقلاً لعدوى؟ كن حذرًا يا ألكسندر، فليس معروفًا من نتعامل معه.

-اصمتي أيّتها العزّابة! قال النجار.

واستدار تمامًا إلى جانب لوارن المتكئ على العربة الصغيرة، وبيديه المبلّلتين اللتين كان القميص متدليّاً عليهما بتضليعاتٍ قاسيةٍ رفع السترة التي رماها على لوسيين وجويل، وما زالت السماء تمطر. وفي ضوء الملجأ الخفيف ارتفع وجه لوسيين منتعشًا وضاحكًا، فيما ظلّ وجه جويل خاملًا وأصفر كالشمع.

-ألقِ نظرة! قال لوارن.

عبس العاملُ عبوسًا معبّرًا، إذ رأى الطفلين يموتان، وقال:

-هناك طبيبان في القرية، جرّب: أحدهما كبيرٌ في السن، ليس رجلًا سيئًا ونوعًا ما...

-لن يرغبوا في أخذه مني وليس هذا ما أريده، أريد شخصًا يضعه في السرير! أجاب لوارن.

-لا أعرف.

-أو مستشفى؟

-هناك واحدةٌ يا صديقي، ولكنها فقط من أجل أبناء المنطقة. إن كان ينبغي أخذ الجميع الآن، فذلك يعني كلّ من يمرّ في الطريق، كما تعلم! ...

ترك لوارن السترة تسقط على أطفاله، وصاح مادّاً قبضته في المطر الغزير الذي ضرب خدّيه:

-آه! كم قاسيةٌ قلوبكم! إلى أين تريدني أن أذهب إذًا؟ لا أستطيع تركه يموت!

-وأنت أيضاً قلبك قاسٍ! من الذي يجبرك على التجوّل بين الأرياف والتسوّل برفقة أطفالك أيضاً من أجل الشفقة؟ يمكنك الذهاب، اذهب! نحن نعرفها...

-أخبرني أيّها الطوّاف، أين أوراقك؟ صاح صوتٌ أجش.

شاهد رجلًا ضخمًا يرتدي سترةً محبوكة، وواثقًا جدًا من اللغة والموقف، ذلك البريتاني الذي أدار العربة الصغيرة بحذرٍ ليتبع خطواته.

-أجل، أين أوراقك؟ ... ألن تجيب؟ أليس لديك أيّ شيء؟ ... إن كنت ترغب بالنصيحة فاخرج من هنا! ... أنت محقٌ بالالتفاف! وبسرعة!

وبازدراء ضحك الحارس الريفي ضحكةَ الموظّف الصغير الذي وجد

التسوية صائبة على الدوام، والذي يشعر بالقوة وراءه ولم يعد يشعر بالمسيح الذي يُنبذ. لم يتقاعس عن طرح هذا السؤال «هل لديك أوراقك؟» وسيحقّق النجاح نفسه وبلا خطأ: سيمضي الرجل المسكين وسيخلّص المنطقة من وجوده وثيابه الرثة، ولن يكون هذا مختلفًا عن الآخرين. وبعد محاولته المقاومة فهم أنّه كان خائفًا، وها هو يسحب مرّةً أخرى عربة المتسوّلين ويلمّ الدفّة من الطين. ضحك الحارس ويداه في جيوب سترته، لكنّ جان لوارن انتصب فجأةً. كان الرعب من رؤية طفله يموت قد سحب كلّ الدماء من وجهه وأخرج العيون التي ما تزال تلمع من عمق محجريهما، وتخطّى الجدول ومشى نحو المنزل، وشابكًا يديه النحيلتين معًا انحنى للداخل من خلال فتحة المتجر، وبطنه مستندة على الحائط المنخفض وصدره ممدود نحو العامل الذي توقف عن السحج وقال:

-صديقي، يا صديقي، أنا لا أعرفك، لكن حتمًا بداخلك شفقة!

ومحا الألم ميثاق الحياة وخاطبه بغير كلفة:

-إن كان لديك طفلٌ ارحمني وتعال معي!

-لأجل ماذا؟ قال النجار.

-سأخبرك لأجل ماذا. قال لوارن على الفور. فقط تعال! ... تعال على الفور! ... أنا إنسانٌ مثلك وكان لديّ بيت كما لديك، ولم يبق لديّ أيّ شيء!

هذا التذكير بالأخوة، وهذه الكلمات النابعة من الألم الحقيقي، لم يسبق للعامل أن سمعها كثيرًا وأصيب جرّاءها بالاضطراب. ارتجفت الروح الخاملة بعادتها، وترجمت اليد العاطفة حين قبضت على حفنةٍ من النشارة التي عضّلتها واحتضنتها كيدٍ أخويّة، وتردّدت الإرادة الواعية البطيئة بشدّةٍ

والتي حاربتها مجاورة الشاهد المستمع في الحي. أمّا لوارن الذي لم يتلقَ أيّة إجابةٍ، وليس أمامه سوى عامل عجوزٍ أحنى جبينه وظلّ ساكنًا وركبتيه غارقتين في نشارة الخشب الأشقر، فقد رجع فجأةً إلى الوراء وغادر. بدأت العربة الصغيرة تتدرج مرّةً أخرى وتتألم، ولم يكن قد خطا بعد مئة خطوةٍ عندما سمع رجلًا يقترب ويسارع لتجاوزه، ويبدو أنّه لم ينتبه له. اعتقد أنّه ربّما يكون حارس الريف الذي يرافقه إلى أقصى الحدود، لكنّ كتفه التي تجمّدت بفعل المطر سرعان ما شعرت بلمسةِ رفيق في السفر الذي حاول أن يهدهده بنفس التأرجح وسأله:

-بالله عليك، ماذا هناك؟

-أوه! ماذا هناك؟ ... لا، ما الذي كان هناك... قال لوارن.

واستمر في المشي حتى دون أن يلقي نظرةً خاطفةً على الرفيق الذي ناداه، فظن أنه مجنون.

-ماذا هناك يا ولدي المسكين؟ سأل الرجل مرةً أخرى. لقد تركت عملي لأجل مساعدتك. ماذا تريد؟

وكانت البلدة خلفهما بالفعل، وسارا على الطريق الرطب، العاملُ حانيًا رأسه وكأنّه يستجمعُ ثقةً حزينةً، ولوارن في المقابل مادًا رقبته للهواء على عادته، وكلاهما تضربه الأمطار الغزيرة التي تستأنف هطولها بشكل مفاجئٍ وتهدأ كذلك أيضاً. عندها تحدث البريتاني بصوتٍ منخفض جدًا هامسًا بكلماته تجاه السحب الجارية، وفي بعض الأحيان يتوقّف مؤقتًا لأكثر من عشر خطواتٍ عندما يخذله قلبه، أو عندما يخشى أن ينطق اسم دوناتيين.

-ثمّة آلامٌ ألمّت بي ولا أستطيع التحدّث عنها... قال لوارن. لكنّك

ستصدّقني، فأنا لستُ مخطئًا... كنتُ أعمل ولم أؤذِ أحدًا، وكنت أمتلك مزرعةً جميلة... والآن أجرّ خلفي كلّ ما تبقّى من منزلنا... وسيموت صغيري جويل، عليك فقط أن ترفع السترة التي وضعتها عليه وأن تتحسّس خدّه، سيموت بحال لم تجد شخصًا رحيمًا يعتني به ويداويه! ... أخبرني عن أحدٍ ما؟

سكت النجار للحظةٍ وهو يعاين الريف وقال:

-دعنا نستدير هنا، لديّ فكرة.

واستدارا يسارًا نحو الجانب حيث ترتفع الأرض وتشكلّ تلًّا طويلًا ومنخفضًا، كتلك التلال الموجودة في بريتانيا، متوَجًا ببعض أشجار الصنوبر من بعيد. انحدرت خطوطٌ من شعاع الشمس بين غيمتين مندفعة بضراوةٍ عبر السهل الرطب.

شدّ لوارن على يد نويمي وتابع:

-يمكنني فقط أن آخذ معي الكبيرة هذه ولوسيين التي تمشي بعض الشيء، ولكن حالما أجد عملاً سأكسب المال لاستعادة جويل ولأدفع لمن ربّاه... أعدك...

-أين ستذهب؟ سأل رفيقه.

-للبحث عن عمل.

-وأين هو موجود؟

-في فونديه؟

-هذا ما يقوله العابرون، لكنّ لا أحد يراهم مرّةً أخرى. قال العامل.

وبات أكثر ثقةً عندما أنصت إلى لوارن، وكانت لحيته البيضاء من وقتٍ لآخر تعلو أثناء مروره فوق الحواجز وكان يبحث عن شخصٍ ما. توقّف المطر وبات الطقس أكثر اعتدالًا، وانبعث البخار من الأرض، تلك هي اللحظة التي خرج فيها العمّال لإنهاء عملهم على عجل. وبلمحةٍ راقب العامل وتعرّف على الأشخاص الذين يجمعون الكستناء، أو الذين يحرثون بالمِسلَفة، أو الذين يقودون القطعان على جانبي الطريق، ولم يتوقّف. وفي النهاية عندما اتّسعت المساحة المضاءة رأى امرأتين في حقلٍ تقطعان العشب بالمنجل فيما لم يرياه، فناداهما وجاءتا، وأراهما الطفل المتقد بكامله جراء الحمّى في مؤخّرة عربة روس غرينيون الصغيرة وشرح الأمور، وأضاف:

-سأجيب عن الرجل، افعلا فقط ما يطلبه.

فسألت الأكبر سنًا بين الفقيرتين:

-ما الذي سيعطيه؟

وتناقشوا حول ذلك، ولكن أثناء محاولتهم التوصّل إلى اتفاقٍ انحنت الصغرى، وجعلت من ذراعيها سريرًا ورفعت الطفل إلى صدرها قائلة:

-سآخذه لنفسي! وحدث التبني...

وبعد ساعةٍ، على قمّة التل وبين أشجار الصنوبر، غادر لوارن المزرعة حيث تُرِكَ جويل، وبعد أن أصبح على بعد عشرين خطوة وبعيدًا عن العودة، قال لنويمي:

-عانقيه كثيرًا!

وركضت الصغيرة إلى المنزل وسرعان ما رجعت.

-عودي! قال الأب.

وعادت مرّةً أخرى، وللمرة الثالثة أرسلها قائلاً:

-أحببه كما لو أنّك لن تريه لأسبوعٍ طويل!

ولأنّه لم يشرح مشروعه للطفلة رآها والسعادة بادية عليها مرّةً أخرى.

بعد ذلك اقترب من الرجل الذي قاده إلى هنا، وعرّف عن نفسه ليشكره دون أن ينبس ببنت شفة، ومن ثمّ سأل:

-أين طريقي الآن؟

وكان الآخر أقلّ شجاعةً من لوارن، فلم يستطع الكلام واكتفى بالإشارة نحو اتجاه الشرق.

ونزل لوارن التل وليس معه سوى اثنين من أطفاله الثلاثة.

ومضى بسرعةٍ دون أن يلتفت للوراء، طالما ما يزال هناك بعض الضوء، وبدا كالأحمق وتحدّث عن العديد من الأشياء، وقال للأشجار: «انظروا إلى ما أجبرتني على القيام به!». نفّث عن غضبه الذي لم يتواجد يومًا في قلبه، وكال التهم لدوناتيين وحمّلها مسؤوليّة كلّ البلاء الذي لحق به. وقال أيضاً: «امرأةٌ سيئة! لقد اضطررتُ للتخلّي عن طفلك! طفلك يبكي، وزوجك يمشي، وها هي نويمي لم يعد لديها حذاء!». ومع ذلك حين يجهش بالبكاء، ينتهي به الأمر قائلاً: «إنّها لا تعرف ما الذي حدث لي على أيّ حال، فلو علمت بالبلاء الذي سبّبتْهُ لربّما عادت!».

وتابع مبتعدًا عما كان يمثل بالفعل حدود بريتانيا.

في الأيّام التالية لم يعد يواجه المستنقعات، وبدأ بشرب النبيذ حينما أمست المزارع التي عمل فيها غنيّة، ولم يعد يُسألُ عن الأبرشيّة التي ينتمي إليها، ولكن ثمّة حذر بقي تجاهه.

قيل له: «إن بذور القطيفة الطائرة رخيصة الثمن، ومواطنوك البريتانيون مرتبطون للغاية بأشجار التفاح والأراضي المستنقعيّة لدرجة أنّ لا أحد يرحل سوى الأسوأ حالاً بينهم».

وسُمِحَ لهُ بالمبيث في بعض الأحيان، ولكن بطريقةٍ تقلّ جودتها عمن سمحوا له بذلك.

نام في اسطبلات الخنازير، وكان عليه أن يدفع ثمن ليلته عدّة مرات، ليس فقط للأنزال(3) التي قاده البرد إليها، بل أيضًا للمقيم الذي فتح حظيرته له، إذ كانت قلوبهم شديدة القساوة. باتت الأيّام السيّئة قادمة، وفي هذه الأثناء حانت الليالي الباردة. الحقيقة أنّ الطريق لم تغدُ أسهل كلّما امتدّت، كما كان يأمل لوارن.

فكّر بالطوّاف أحياناً في تلك الأيّام التي تراكمت منذ مغادرته، ودون أن يعرف مكانه بالضبط حاول أن يتخيّل مسافةً فيما يتعلّق بهذه المدّة: سبعة أسابيع، ثمانية أسابيع... لكنّه لم ينجح بذلك. وأيضًا حاول في كثيرٍ من الأحيان تأجير نفسه في المزارع عبثًا، فقد كان نحيلًا لدرجة اعتُقِد أنّه ضعيف، فكان يسأل: «هل هناك بطاطا لاقتلاعها؟» فيُجاب: «لا شك، لكن الموجودين كافون»، أو حتّى لا يجابُ أبدًا.

قال لنفسه: «لست في فونديه بعد، لأن الريف هنا ليس أفضل من عندنا»، وفي كثيرٍ من الأحيان راودته أفكار سيئة، وفي بعض الأحيان راودته فكرة

الانتحار، بأن يرمي نفسه في بركةٍ أو بحجرٍ على عنقه، وفي بعض الأحيان، بل في كثيرٍ من الأحيان، بدا الأمر إخفاقًا أخلاقيًا مقلقًا وأكثر قتامةً، وندمًا على كلّ ما فعله بشكلٍ صحيح. فكّر: «ما الذي جنيته من محبّتي لدوناتيين هذه؟ لماذا لم أقلّدها وهي التي ضحكت علي؟ ها أنا على الطرقات أفقر من الذين اعتدت تقديم الصدقات لهم، أحمل لوحدي الأطفال الذين كانوا لكلانا، وأضطر إلى تقديم الشكر حينما أنام على القش. إذا أردت رغم ذلك، نعم، إذا أردت!». تذكر الكلمات ذات المعنى المزدوج التي وجهتها إليه ابنة بلويغ، والتي كلّفتها دوناتيين نفسها بالقيام بأعمال المنزل خلال الأشهر الأولى من الانفصال، وشعر أنه مسكون بضحكة أنيت دومرك الخبيثة، بنظرتها التي احتفظ بها في أعماقه كاللدغة السرية المسمومة.

دائمًا ما تجاهل هذه الأفكار بسرعةٍ كبيرة. كان نادمًا ويبحث عن سند، لذلك كان يقبّل نويمي ولوسيين عشرين مرّةً على التوالي ويقول لهما كلمات في غاية الرقّة، وحاول أن يضحكهما كأن ضحكاتِ الأطفال عزاءٌ له، فيما اندهشت الصغيرتان بشكل غامضٍ من هذا الحنان المفاجئ الذي -علاوةً على ذلك- بات يتزايد أكثر فأكثر.

ومن تلّةٍ إلى تلّةٍ، وعبر الأراضي الصلصاليّة والغابات والبلدات، انحدر باتّجاه الجنوب الشرقي، ومرّ عبر مايين وعلى يمينه إرنيه وعلى يساره غران جوان. وفي بعض الأيّام اندهش من على التلال لشمّه رائحة الهواء المالح مرّةً أخرى، ولأنّه اقترب من الوادي العظيم الذي يدخل قلب فرنسا، ودون أن يعرف ذلك، بات أقرب إلى البحر مما كان عليه في منتصف رحلته.

في إحدى أمسيات أكتوبر كان يمشي بصعوبةٍ بسبب المطر الذي بدأ يليّن الأرض، والذي جاء بهطولٍ غزيرٍ طويلٍ مع رياحٍ لطيفة. ظلّ يفكّر في البذر

مع حلول وقته، وانفتحت يده على الحبوب المفقودة، يده المحكوم عليها بعدم لمس القمح بعد الآن. ترك مقبض العربة وأمسك به مرّةً أخرى، وكان هناك في الجو عاصفة لم ترعد بعد. كان لوارن جائعًا، ونويمي ولوسيين أيضًا، وكانوا يصعدون تلاً لا بدّ أن قمّته بعيدة للغاية، لأنّه وفي أعلى نقطةٍ له من الممكن رؤية القماش المشمّع لعربة الجوّال التي تهتزّ أثناء سيرها ولا تبدو أكبر من سلّةٍ من القصب. أوشك النهار على الانتهاء، لكنّه كان يومًا من تلك الأيّام التي تغيب فيها الشمس دون معرفة أين ومتى وفي أيّ لحظةٍ بالتحديد، إذ لم تكن هناك سوى بقعٍ شاحبةٍ من السماء المغطّاة بالدخان المتحرّك على يمين السيّارة التي تبتعد. ما من سقفٍ قريبٍ، وما من نظرةٍ أو صوتٍ بشري: حقولٌ مظلمةٌ حُرِثت مؤخّراً وتقطعها أشجار الكروم التي تضاعفت في آخر أسبوع عل درب المغامرة التي اتّبعه البريتاني، وبعد الكروم، وعلى بعد بضع مئات الأمتار من القمّة، تمايلت غابة من أشجار البلّوط الممتلئة وشربت المياه من خلال أوراقها وطحالبها وفطرياتها وأشناتها وأرضها المساميّة. قال لوارن لنفسه: «سأصل إلى هذا المأوى السيّئ، على الأقل سيكون هناك بعض الخشب كي أطبخ، فصغاري بحاجة إلى شيءٍ دافئ». استغرق ربع ساعةٍ طويلةٍ لعبور المسافة التي تفصله عن الغابة، ودخل من خلال منخفضٍ في المنحدر وترك العربة الصغيرة على حافّة إحدى تلك الفتحات الدائريّة التي خلّفها الفحّامون وراءهم حينما صنعوا الفحم خلال عمليّة تقطيعٍ للخشب. وعلى الفور بدأ يخرج من العربة قدرًا قديمًا وزجاجة مياهٍ وخمسة حبّاتٍ كبيرةٍ من اللفت كانت قد أعطيت له، وجلست نويمي على كتلة البلّوط حيث أقلّ آثارٍ للمياه في جذورها، وبعد أن وضعت أختها بالقرب منها، وبعد أن ربطت طرفي الشالين الرماديين اللذين كانا مفكوكين، بدأت بتقشير الخضار بسكين جيبٍ فيما ابتعد الأب بحثًا عن

الحطب.

حينما أمست الصغيرتان بمفردهما ضحكتا، وكانت ضحكتهما حلوةً، كأنّ هناك طيورًا، وابتعدت في نهاية النهار تحت المطر نحو الطريق التي تمضي لمسافةٍ قصيرة، نحو الأب الذي ابتعد على شكل دائرةٍ خوفًا من الضلال بعيدًا. هذا الأخير شعر بضعف ما تبقّى من شجاعته حينما سمعهما، فهما لا تستوعبان أنّهما خارج الريف البريتاني، وأنّهما معاديتان في نظر العالم، وأنّ الشتاء قادمٌ، وأنّ ضجر هذه الملاجئ العشوائيّة وعدم اليقين في الحياة يزداد مع الأيّام، فلم تعانيا من الاختناق ولا من فزع الليل القاتل الذي غطى الغابة وكان بإمكانه أن يبكي الإنسان السعيد!

عاد لوارن إلى صغاره وبحوزته حفنتين من الأغصان الرطبة وثلاث حفناتٍ من الطحالب التي عصرها كالإسفنج.

كان القدر مليئًا بالمياه وقطع اللفت المقشّرة. التقط بعض الحجارة وصنع منها موقدًا محشوًا بالخشب، وأشعل إحدى أعواد الثقاب التي يحملها في علبة السعوط القديمة. لم يشتعل الخشب، إذ لم يكن هناك سوى نفخة من الدخان التي انطلقت مائلةً ومتشرّبةً بسرعةٍ في الضباب المزعج.

-هناك حاجة لبعض الأوراق الجافّة. قال لوارن. خذي عيدان الثقاب يا نويمي، سأذهب للحصول على بعض الأوراق... سيكون الجو باردًا هذه الليلة يا صغيرتيَ المسكينتين!

كان منتصبًا، منزعجًا وشعره ملتصقٌ ببعضه، ينظر لجهة الغرب حيث كان هناك أثرٌ طويلٌ مصفرٌ كثعبانٍ مهروسٍ، بقايا ضوءٍ بين الأرض والسحب المنخفضة، شديدة الانخفاض بحيث أن الهواء مفقودٌ أسفلها. هناك يا لوارن،

هناك في الماضي وعند حلول الظلام، ثمّة نيرانٌ ساطعة تشعلها لك امرأةٌ أخرى، وتحيّاتٌ ترحّب بك، وأذرعٌ تنفتح لأجلك وتحبّك...

-هيّا بنا. قال بصوتٍ هادئ. يجب ألّا أنظر بهذه الطريقة مرّةً أخرى، أبدًا على الإطلاق... وكرّر: سيكون الجوّ باردًا يا صغيرتيّ المسكينتين!

وأثناء كلامه استدار ليذهب ويجمع بعض الأوراق الجافّة، وحاولت نويمي بدورها إشعال أعواد الثقاب وضحكت، دون جدوى تحت هطول المطر والهواء اللطيف الذي يخمد الشعلة تدريجيًا... وفي هذه الكآبة العظيمة تلاشت ضحكتها الطفوليّة.

فجأةً توقّفت عن الضحك، وسمعها الأب الكائن على بعد ثلاثين مترًا وهي تتكلّم، ولم يستطع رؤيتها لأنّ الغطاء السحابيّ قد تكاثف والليل قد اشتد... بالكاد رأى يديه الهائمتين على الأرض وأطراف الأغصان على السماء الرماديّة الدخانيّة... نويمي تتحدّث... إلى من؟ ليس لأختها... فالأطفال لا يملكون الصوت نفسه حينما يتحدّثون مع بعضهم البعض، وعندما يكونون في حضرة شخصٍ راشد... إنّها تتحدّث في الغابة، وتجيب على الأسئلة المطروحة بصوتٍ خفيض... لا تحمله الريح في هذا الجانب. اقترب لوارن منحنيًا ومنتبهًا وقلبه يخفق بالغضب... إن كان طوّافًا فسيضربه! لماذا؟ لأنّه... لأنّه منع نويمي من الردّ على الطوّافين، ولأنّ الكراهية في قلبه والألم هذا المساء... استدار وقبضتيه تشدّان على الأوراق التي يمسكها، وبصمتٍ وصل بالقرب من حلقة الفحم. ثمّة ثلاثة أجسادٍ تميل نحو الموقد، اثنان صغيران والثالث كبير. سمع صوتًا يقول:

-أعطني أعواد الثقاب يا صغيرتي، فأنا أحسن إشعالها!

-لا تعطيه إيّاها يا نويمي! سأحميك! صاح لوارن.

وكان واقفًا. أضاء وهجٌ فوسفوريٌ ومن بعده شعلةٌ محميّةٌ داخل يدين قويّتين، ورسم الوميض الحاد والمفاجئ وجهًا بدا للحظةٍ، لثلاث أرباعها، ثابتًا وممتلئًا ومرسومًا بخطوطٍ حمراء في عتمة الليل حيث ينغمس فيه على الفور تقريبًا. كانت امرأة، وبدورها نظرت الأخيرة نحو لوارن... وقالت:

-هل تريدني أن أصنع الحساء؟

-لا! لا أريد منك شيئًا! اذهبي! صاح لوارن.

لم تكن المسافة بينهما مترين وبديا بحجم بعضهما تقريبًا، وأشعلت المرأة، التي انحنت متجاهلةً الرفض، حفنةً من الخشب. ووسط كثرة الدخان اضطرمت الشعلة تحت الإناء مضيئةً العشاء والأطفال المنحنين، وكذلك وجه المرأة التي تجلس القرفصاء وتنظر إلى البريتاني طولًا وعرضًا، وتضحك بوقاحةٍ وثقةٍ وفضولٍ غير عاديين. وسألت للمرّة الثانية:

-هل تريدني أن أصنع الحساء؟

-لا!

غير أنّه لم يحاول طردها.

كان شعرها كثيفًا أسود اللون، متشابكًا وملتفًا حتى أمّ رأسها الذي لا تضع عليه قبّعة. ظلّت تتأمّل لوارن للحظةٍ طويلة. تصاعدت النيران، حينها قالت المرأة وهي تنهض بليونةٍ ولطفٍ شديد، ودون أن تتوقّف عن النظر إلى لوارن، ولكن بنبرةٍ مختلفةٍ تعض القلب:

-قل، هل تريدني أن أصنع الحساء؟ ... كلّ يوم؟ ... طالما لا يوجد هناك

مانع؟ ... لا يمكنك إطعام هؤلاء الأطفال، بحقّك!

لم يجبها، وابتعد عن متناول النار نحو الظلام بحجة جمع الحطب لإيقاد النار، ولكن طوال الوقت ظلّ ينظر إليها وهي ما تزال شابّة، قويّة وقبيحة في الضوء الراقص...

وعندما عاد لم يجب بكلمةٍ إضافيّة، لكنه بقي وتناول الحساء الذي طبخته.

بعد ثلاثة أيّام نزل المسافرون في طريقٍ رملي، وكانوا أربعة. وعلى ذراعها اكتفت بحمل حزمةٍ من الغسيل، هي الرفيقة المطرودة من مقطورة، أو المفرج عنها من الإصلاحيّة، أو التائهة التي انضمّت إلى التائه، وقد رافقتها الصغيرة نويمي. سارت الطفلة خائفةً على طول الفستان، وفي بعض الأحيان كانت تجري خوفًا من التأخّر لأن المرأة تسير بسرعةٍ دون انتظار لوارن الذي يجرّ على المنحدر العربة الصغيرة المحمّلة أكثر مما كانت عليه في البداية، فيما ما تزال لوسيين معه كما كان في البداية. بات أكثر كآبةً من أيّ وقتٍ مضى، ولم يعد يتحدّث إلى الأطفال، وما كان جيّدًا ومستعفيًا في النظر ذات مرّةٍ لم يعد يملكه حتى عندما ينظر إلى الرفيقة التي قبلها. هذه الأخيرة لا تهتمّ به، إذ كانت تسير على جانبي الطريق متراقصة، والعيون تدور حولها كأولئك الذين يشردون عادةً، وحينما تمرّ بالقرب من بستانٍ تقفزُ فوق السياج لتلتقط حبات التفاح أو الكمثرى أو عناقيد العنب. فضلًا عن ذلك، كلّ ما ينبغي فعله هو الإشارة لها للاعتناء بالأطفال، أو لإطعامهم، أو لحملهم في الأماكن الصعبة حيث تكاد العربة تنزلق، أو لإصلاح ملابسهم وجواربهم عند التوقّف. لم يكن لديها أيّة رغبةٍ أو مقاومة، وعند زاوية شفتها تضع خصلةً من العشب على الدوام تقريبًا وتسحقها بين أسنانها البيضاء. نزلوا الممرّ الرملي المتعرّج بصمت، لوارن في منتصف الطريق ومعه لوسيين والمرأة

على يساره ووراءها نويمي، وكان يومًا جميلًا، إذ بدا أن الهواء المضيء يودّ غسل جروح الخريف كلّها، وامتدّت الكرمات على جانبي الأسيجة التي كانت رقيقة، مليئة بنباتات الجَحليق(4) والباربري(5) والجنجل(6). يجري قطف العنب في كلّ مكانٍ تقريبًا، وتنبعث رائحة النبيذ الطازج وتنحدر من سفوح التلال وتتدحرج نحو أشجار الحور والصفصاف الأصفر التي يمكن رؤيتها في قاع الكروم. مطلقًا لم يشمّ لوارن هذه الرائحة الثقيلة التي تظلّ طافيةً فوق منحدرات المقاطعات الدافئة والحارة في فرنسا لمدّة شهر، كما أنّه شعر بالدوار، ولكن عندما هبّت الريح الغربيّة على فتراتٍ متقطّعةٍ استقام الوجه النحيف، ونظر إلى السماء المفعمة بنسيم الريح العظيم، هذا الرفيق الجديد الذي تعرّف عليه، ووُلدت فيه عاطفة حبٍّ من جديد.

عند المنعطف الأخير توقّف الطوّاف، وهمست شفتاه الصامتتان:

-البحر!

في نهاية مرجٍ سلِسٍ كالطريق يتدفّق نهرٌ واسع، وكان له جلالة إحدى أذرع البحر تلك التي تشق الغرانيت البريتاني وتمتدّ سيلًا متناهي الصغر وملتوٍ كمحلاق(7)، وكان له ضفافه الرمليّة وخلجانه ومدّه وجزره واتّساعه نحو الغرب. أمّا لوارن الذي لم يؤثّر به أيّ من الأشياء التي رآها خلال الرحلة فقد كرّر وهو يتنفّس بصعوبة:

-البحر! البحر!

هزّت المرأة كتفيها باحتقارٍ وقالت:

-ألم تره على الإطلاق؟ هذا هو اللوار.

واستأنفوا سيرهم من خلال المرج في نسيم ريح البحر الذي أتى ليتشرّب رائحة قطف العنب ويخلطها برائحة الزبد، وتلألأت عينا لوارن مفتونةً بتوهّج المياه أثناء حركتها. لم يعنِ له اسم اللوار شيئًا، وفكّر في المياه التي تروح وتجيء على الضفاف، واعتقد أيضًا أنه على الجانب الآخر ستكون فونديه أخيرًا، وسرعان ما راود قلبه شعورٌ بأنّه سيفارق بريتانيا إلى الأبد، فتباطأ في مشيته، وظلّ صامتًا وشاحبًا تمامًا لأنّه أوشك على عبور ما أسماه بالبحر وما كان حقًّا بالنسبة له هو البحر، الحدود العظيمة التي لا يعبرها المرء مرّةً أخرى حينما يهاجر.

لم يكن لدى المرأة أيّ فكرةٍ عمّا يمرّ به، ولكنّه أخذ يد نويمي بعد أن اقتربت منه بالصدفة وظلّ ممسكًا بها، وبدأت الطفلة كلامها فقالت:

-شراع! انظروا إلى الشراع!

غير أنّه اكتفى بالنظر إليها بحنانٍ شديدٍ لدرجة أنّها فوجئت ونظرت إليه متسائلة: «ما خطبي؟!»

وكان المرج حيث تقدّموا في ظلّ ريح اللوار المستمرّة حول فاراد، بعيدًا جدًّا عن القرية والجسر، فاقتربوا من الضفّة، ورأى لوارن رجلًا يستعدّ لعبور النهر من خلال قاربه وناداه طالبًا المرور. نظر الآخر إلى هذه القافلة الصغيرة، وكان ثريًّا شأنه شأن العديد من الفلاحين في الوادي، وبدا له البؤس خطأً، وقال:

-من الجيّد أن أخدمك لكنّني في عجلةٍ من أمري. لذا نادِ زوجتك المتسكّعة!

«زوجتك». عند هذه الكلمة ارتعش لوارن بقوّةٍ لدرجة أنّ الملاح الذي كان يتناول الخبز الأبيض والنبيذ قد انفجر بالضحك، ولا يحتاج الأمر سوى القليل

لتسليته. كانت رفيقة لوارن تقطف الفطر في المرج وتضعها في ثنية تنّورتها المرفوعة، ورغم النداءات فقد وصلت متباطئة ومنحنية لزيادة الحصاد: عشاؤهم عند حلول المساء. وأثناء مجيئها تابع الفلاح المتكئ على عصاه المرتجفة جراء جريان المياه، وذلك بعد أن لاحظ الشعر المجعّد والمحيّا الصلف والمهمل للمرأة:

-أنتم تقومون بعملٍ مقدّس، جريّ على الدوام! لا أحد يجني المال! تعالوا واصعدوا على متن القارب!

لم يجيبوه، وصعدوا على متن القارب المسطّح حيث وضعوا العربة الصغيرة وكافّة الأمتعة، وعلى المقعد الموجود في مقدّمة القارب جلس لوارن بجانب نويمي، ومرّةً أخرى أخذ يدها وشدّ عليها بقوّة.

لكنّه لم يتكلّم قط، ولم ينظر إلى طفلته أيضًا، وشردت عيناه فوق المياه المتلألئة، حيث مضى القارب على غير هدى، وبعدها في أبعاد اللوار على كلّا الجانبين. بدت نويمي سعيدة بهذا الانزلاق الذي أخذها بعيدًا، بحيث لم تعد مضطرّة للمشي. تلك كانت الأشياء التي تدفقت خلفها. وفي منتصف النهر شعرت أن يد الأب تشدّ يدها أكثر من ذلك بقليل، ورأت أن وجهه يتألم ويستدير نصف استدارةٍ نحو الأفق البعيد المضاء بنورِ الشمس العابر. قال لها بهدوء:

-ألا تذكرك هذه المياه العظيمة بأيّ شيءٍ يا صغيرتي؟

اتّبعت الطفلة وجهة اليد المرفوعة بالكاد وأومأت برأسها دون أن تتذكّر شيئًا، فتابع الأب بلطفٍ أيضًا:

-بالنسبة لي يذكّرني بالبحر، مثل ذاك الذي يسمّى إيفينياك وشواطئ دي

غيت. أفلا تتذكّرين؟

هذه المرّة أجابت الطفلة قائلةً:

-لا.

-أفلا تتذكّرين جدّك لو كليش، الصيّاد الذي -هو أيضا- كان يمتلك قاربًا؟

-لا.

-إلا أنّنا ذهبنا لرؤيته مرّةً واحدةً معك ومع...

وكاد يقول «مع والدتك دوناتيين» لكنّه ضبط نفسه، وانحنى جبينه نحو ألواح القارب، فسمعته الصغيرة وهو يقول:

-إنّني وحيدٌ تمامًا في هذا العالم!

ولم يركّز جلسته مرّةً أخرى حتى وصل إلى الضفّة الأخرى.

عندها نزل لوارن من القارب وشكر الفلاح الذي ربط السلسلة وابتعد، وقف على الرمال عند طرف حدائق الصفصاف وفي مواجهة النهر، لم يكن ينظر سوى إلى شيءٍ واحدٍ فقط: بريتانيا البعيدة فعلًا، والتي رآها للمرّة الأخيرة.

وانغمس بالتأمّل في المرج والكروم التي جرى عبورها قبل ساعة، وكذلك بأوراق الأشجار المتجانسة مع الطرقات والهاربة نحو جهة شمال الغرب، وبما رآه وراءه بلا شكّ لدرجة أنّه ترك نويمي تنزل بمفردها، وترك رفيقته تمر من أمامه وتلعنه وهي تسحب العربة وتحمل السلّة. تُرِك وحده، وكان مُفعمًا بروح الأرياف التي أتى منها. هذه الروح، وعلى الرغم من كلّ القرارات، اندفعت بعنفٍ نحو الأماكن التي عانت منها كثيرًا، وما تزال تعاني هناك. تاه

في وداعاتٍ بحيث لا أحد غيره يعرف السبب والقساوة والمكان المتكرر في دائرةٍ ضيّقةٍ جداً حيث استمرّت حياته.

وبين الصفصافات ناداه صوتٌ بعيد:

-هل ستأتي يا لوارن؟

فصحا من سباته، وواصل الصوت قائلًا:

-إلى أين ينبغي أن أذهب؟

فأجاب:

-دائمًا أمامنا، دائمًا!

ومن ثمّ استدار وتبع البؤس الذي يناديه، وغرقوا جميعًا نحو وسط فرنسا.

---

(3) جمع نزل.

(4) أو الرباطيّة (بالفرنسيّة Viorne) جنس نباتي يتبع الفصيلة المسكية من طائفة ثنائيات الفلقة، ويضم نحو 150 نوعاً من الشجيرات ويتواجد في النصف الشمالي للكرة الأرضية وجبال أطلس في المغرب العربي إضافة إلى المناطق الجبليّة في أمريكا الجنوبية (المترجم).

(5) بالإنكلّيزيّة Barberry، وهو الاسم لعدد من الشجيرات الشوكية الواطئة، والتي لها أوراق حمراء وثمار زاهية في الخريف، وتنمو بشكلّ طبيعيّ في شمال أوروبا وشرق الولايات المتحدة، ويستعملها الناس لتزيين

منظر الحدائق (المترجم).

(6) أو حشيشة الدينار (بالفرنسيّة Houblon) جنس نباتي ينتمي إلى الفصيلة القنبية، وموطنه بلاد الشام والمغرب العربي وتركيا والقوقاز وكلّ مناطق أوروبا من اليونان والبلقان إلى إسبانيا والبرتغال وشمالاً من إيرلندا وبريطانيا إلى فنلندا وروسيا (المترجم).

(7) أو الحالق (بالفرنسيّة Vrille) عضو نباتي ذو شكلٍ لولبيّ تستعمله بعض أنواع النباتات المتسلقة للتعلق على دعامة (حائط أو صخرة أو حتى نبتة أخرى أو شجرة) (المترجم).

IX

«À la petite Donatienne»

منذ ثماني سنواتٍ تركت زوجها وأطفالها ومزرعة روس غرينيون في ريف بلويغ للخدمة في باريس، ومضت سبع سنواتٍ منذ أن بيعت ممتلكات جان لوارن وهو يائسٌ بسببها، وخرج من بريتاني واتّخذ طريق فونديه التي تقود إلى كلّ مكان. وفي المقهى الذي تديره الآن والذي حمل اسمها «À la petite Donatienne»، وهو مقهى في الضواحي يقع في زاوية شارع دو لوفالوا-بيزيه، ترك أحد الزبائن وعاء الهندباء الذي وضعته أمامه للتو كي يبرد. لم يكن زبونًا معتادًا، فبوضعهِ لمرفقيه على الطاولة، وبرأسه البارز فوق الوعاء الذي يداعب بخاره ذقنه الحليقة وشارباه الثقيلان الباهتان اللذان يحجبان شفتيه، ظلّ يحدّق أمامه مباشرةً ويقلّب المرق الأسود بالملعقة بشكل تلقائيّ، وبدت كلّ عضلات وجهه مسترخية. كان يستريح، فيما عيناه اللتان تتلقّيان الضوء بشكل مباشر، عيناه الخضراوان اللتان تلمعان بابتسامةٍ فضفاضةٍ مرسومةً بغياب القلق والشعور بالرفاهية، تحدّقان بثباتٍ في الضباب فوق الستائر الصغيرة التي تغطّي الصفّ الأوّل من نوافذ واجهة المحل. ومع ذلك شعر أنّه مضطرٌّ للتحدّث في بعض الأحيان بسبب التحيّز الشعبي الموروث للعصور الخيريّة القديمة، وبدافع التأدّب مع مضيفة الصدفة غير المعروفة والتي لم تكن موجودة حتى في دائرة رؤيته. كانت في الطرف الأيسر من الصالة، جالسةً قبالة الضوء وتكاد تلاصق الزجاج الذي يفصل الصالة عن الشارع، وكانت تحيك زوجًا من الجوارب السوداء، وهو الأمر الذي ظلّت تقوم به طيلة حياتها منذ أزمنةٍ بعيدةٍ حينما كانت جوالةً صغيرةً بين الشواطئ في أبرشيّة إيفينياك، حيث شوهدت بين النسوة اللواتي ينتظرن

مدّ البحر بشكل يوميّ وعودة الأشرعة المتناثرة في عرض البحر. كانت تقوم بهذا العمل دون التفكير فيه، تتوقّف وتستأنف بصمت، ولم يكن تركيزها على الحياكة أكثر ممّا هو لدى الزبون في ضباب الشارع. اعتقدت أنّ هذا الزبون الذي يأكل ببطءٍ شديدٍ يزعجها، وأنّ عليها الخروج للحصول على لوازم الصباح. عاد بائعو الحليب مع أوانيهم الفارغة المصنوعة من الصفيح. حينما نظرت إلى الرجل لاحظت أنّ جلده متشقّق بفعل الريح في السقالات، وفي جوف هذه التشققات آثارٌ للجير تتساقط أحيانًا وتفسدُ داخل القهوة فيما تلوّح اليد. لم يكن أي منهما في عجلةٍ من أمره للإجابة، ومع ذلك فإن هذه الكلمات التي تبادلوها بضعفٍ وبلا طعم أخذتهما بغير وعيٍ إلى لحظةٍ مأساويّةٍ في الحياة.

-بهذه الحالة، هل ترغب بالعودة إلى بلدك؟ قالت دوناتيين.

-أجل لأنّ نوفمبر قادم. أجاب البنّاء. بالنسبة لنا هذا موسم الركود، وحتى مارس سنكون في ليموزان. ربّما تعرفين بلدة جانتيو، أليس كذلك؟

-لا، فأنا لم أغادر باريس إطلاقًا. هل بلدك جميل؟

-ليس كثيرًا. ومن ثمّ حينما لا ينتظرك أحدٌ -كما تعلمين- لا تبدو الأرياف جميلة إطلاقًا.

تثاءبت وحاكت سبع أو ثماني غرز، ولم تجب إطلاقًا وكانت تتوق إلى رحيل الزبون.

أمّا الآخر فأمال رأسه المغطّى بقبعة لبادٍ قاسية، ورفع الوعاء بكلتا يديه وأخذ رشفة وقال:

-هذا ليس جيّدًا، لكن هذا هو الريف، على الأقل هناك بعض المعارف، ومن

الممكن معرفة من مات، ومن تزوّج ومن وُلد. عندما أعود، يُنتظرُ مني أن أكون الأب الروحي دائمًا.

-لم أقل لا. قالت المضيفة.

-ماري، جوليا، هورتنس، بيير، كونستان، ليونار بالطبع... كلّ الأسماء موجودةٌ لدينا في لا كروز...

وبدأ بالضحك لوحده، ومن ثمّ بالنفخ فوق القهوة.

-طبعا حتى أنّني أعرف -كما تعلمين- صبيّاً صغيرًا يدعى جويل!

وضحك مجدّدًا.

ونهضت المرأة فجأةً، وكانت قصيرةً ورشيقةً ترتدي ثيابًا سوداء، جاءت ونسيجها بيدها وعيناها مفنجرتان ومتّقدتان. لم تعد تشعر بالملل، لكن خديها -اللذين ما يزالا طريين متشققين بآلاف التجاعيد الصغيرة في أسفل الجفون- احمرّا بالكامل، وقالت:

-أعد ما قلته لكي أرى.

أراد الرجل الإمساك باليد الممسكة بالنسيج والتي مدّتها نحوه لتطلب منه، لكنّها سحبتها بحركة توقٍ متململ.

-اتركها!

-لا تتوخي الحذر يا جميلتي فهي لن تسيء إليك... حسنًا! هذا صحيح! أعرف صبيًا يدعى جويل!

-كم عمره؟

-ثمانية أو تسعة أعوام.

-أجعد الشعر؟

-لا أتذكّر...

-هل هو لطيف؟

-طبعًا، شأنه شأن الآخرين، وقد ربّته دوناتيين بذراعيها.

-انظر إليّ إذن! ... يجب أن تتذكرا ... هذا الاسم يثير اهتمامي! ... كما ترى، لا يهمني أنك قلته... كنت أعرف طفلًا يُدعى بالاسم ذاته... أين يعيش هذا الطفل الذي تعرفه؟ ...

-ليس قريبًا من جانتيو الذي هو مكاني، ربّما على بعد خمسة أو ستّة فراسخ من طريق العودة، لا أتذكّر اسمه تمامًا، عند منعطف الطريق الرئيسي... عندما جئنا في مارس مع أحد رفاقنا رأيناه يمر... كنّا نسير على الأقدام لنستقلّ القطار... أتذكر نوعًا من الحدائق الصغيرة المحاطة بأسيجة وبها جذوع شجر الحور... كان الطفل يلعب هناك... أراني إيّاه رفيقي وقال: «اسمه جويل، وهو ابن رجلٍ يعمل في المحاجر هناك، ويبدو أنه جاء من بريتانيا».

وانفجرت صرخة مخنوقة:

-بريتانيا؟ أأنت متأكدّ أنّه قال بريتانيا؟ آه! لا تكذب عليّ! لن تفعل ذلك! أريد أن أعرف... لا تخدعني!

وكانت يدها ترتجف على ذراع البنّاء.

-كانت هناك أخت صغيرة بجواره، أليس كذلك؟

-كبيرةٌ نوعًا ما وليست قبيحة بالطبع، تُشبهك قليلًا...

-قلت لي إنّها كبيرة؟

-نوعًا ما، بعينين جميلتين ومشرقتين كالمياه الجارية.

-إنّها نويمي! نويمي! قالت المرأة بصوتٍ حالمٍ وكأنّها تراها. ومن معها؟

-أطفالٌ آخرون؟

-أجل.

-لم أرَ سوى طفلٍ واحدٍ.

-فتاة؟

-بل صبيّ... وكان بسرواله الداخلي... أنا متأكّد...

حينئذٍ تبدّلت هيئة دوناتيين وقالت:

-ليسوا هم، لهذا... صدّقت... ما هذه الأفكار...

وتركت ذراع الرجل، واحتضنتها عاطفة لم تعد تسيطر عليها، وتحت هذه الضربة المزدوجة من المفاجأة وخيبة الأمل انفتح قلبها لهذا الغريب رغمًا عنها. كانت حزينة للغاية لدرجة أنّها باتت تأمل عبثًا، ومنسحبةً بقوّةٍ من حياتها الاعتياديّة لدرجة أنّها قالت:

-للوهلة الأولى ظننت أنّني سأعثر على أبنائي... كان لديّ ثلاثة أطفال، أنا التي تتحدّث إليك... ولم أعد أعرف أين هم... أبدًا، أبدًا... أتفهم؟ الأصغر

يدعى جويل... لكنّني لم أنجب صبيًا غيره، فيما الأخيرتان تدعيان نويمي ولوسيين... إنّني سريعة للغاية في إيذاء نفسي، أليس كذلك؟

وأخرجت أطراف إبرتيها التي تمرّرها عبر النسيج وتراجعت للخلف محاولةً أن تبتسم، بينما ظلّ الرجل يشرب من حافّة الوعاء وهو يحدّق بها. كان أمامه سرُّ حزنٍ أزعجه. عانى من هذا الألم الغامض والمجاور له: أمٌّ وأطفالٌ رآهم يلعبون معًا... ومن ثمّ الهجر... لأجل لا شيء في العالم... لم يكن يريد استجوابها، لكنه تذكر قصصًا من هذا القبيل واستولت شفقةٌ غامضةٌ على روحه بأكملها. ظلّ يشرب ببطء، فيما تابعت دوناتيين الخافضة عينيها نحو عملها، والمرفرفة بجفونها، النسج بشكلٍ عشوائي وعادت للجلوس في المكان الذي كانت تشغله منذ قليل.

شعرت بهذه الشفقة التي تغلّفه وسألته:

-هل تعمل في الحيّ؟

-لا يا سيّدتي، فأنا هنا بإذنٍ من المقاول الذي أرسلني لإتمام عملٍ مع تاجر الجبس، لكنّني أعرف العديد من أصدقائك وقد حكوا لي عنك.

-الأمر لا يتعلّق بذلك. بما أنّك ستقضي بعض الوقت في بلد، فكلّ ما أريده هو المزيد من الاستفسار عن جويل... هل ستعود إليّ في الربيع وتعطيني الإجابة؟ هل تريد ذلك؟

-سأعود بلا شك سيّدتي دوناتيين... لن تكلّفني العودة كثيرًا.

ومن جيب سترته سحب خمس قروش ورمى بها على المنضدة الرخاميّة، وعاد مرّةً أخرى ذاك العامل المياوم(8) غير المهتم.

-من المضحك أيّتها المديرة، على الرغم من كلّ ذلك، أن يكون حتى لدينا في لا كروز بذرة متسوّلين من بلادك... بحيث يبدو أنّك من بريتانيا... دون إثارةِ لحفيظتك، أليس كذلك؟ إلى اللقاء!

ومرّت البلوزة الطويلة البيضاء من خلال الغرفة، وبدت كتفا الرجل ورأسه ذو الشعر القصير، والذي كان مختفيًا تمامًا تحت قبّعةٍ من اللباد الملطّخة بالكلس، محاطة بقوائم الباب، ومن ثمّ ظهرت للحظةٍ في ضباب الشارع نحو اليمين فوق ستائر الواجهة الأماميّة الصغيرة. في النهاية رأت دوناتيين هذا الشبح المتضائل الذي اتّبعته بعيونها وهو يختفي ويغرق في باريس الكبيرة، وواصلت النظر إلى المكان الذي لم تعد تراه فيه، ليكسر مرور عربةٍ في هذا اليوم الأبيض تلك الصورة التي ظلّت صامدة. عبست المرأة على استحياء وبتعاسةٍ مثلما فعلت ذات مرة عندما كانت صغيرة لإجبار والديها على الاستسلام، ودائمًا ما كانا يستسلمان، لكنّ الحياة لا تقدّم فروض الطاعة كالوالدين. دخلت دوناتيين غرفةً ثانيةً في الداخل، والتي كانت عبارةٌ عن مطبخٍ ضيّق، وأخذت سلّةً وعادت إلى المقهى، وكانت ممسكةً بالمقبض النحاسيّ وتهمّ بالخروجِ حينما سألها صوتٌ لاثغ:

-هل نسيت المدير دون قصد؟

وتجعّد وجهُ دوناتيين مرّةً أخرى بفارغ الصبر، ولكنها سرعان ما قالت وهي راغبة بالخروجِ والتهرّب من أيّ تبرير:

-قهوتك على الموقد: عليك فقط تناولها.

-هل هي التي شرب منها الزبون؟

-أعطيته من قهوتي. هيا، عد إلى السرير!

ومدت يدها للمقبض النحاسي.

-توقّفي!

خرج رجل من الغرفة المجاورة وسار إلى الأمام ببشرته الشاحبة، مع مزيجٍ من الذهول والغضب على وجهه، وهو أمرٌ شائعٌ لدى مدمني الكحول.

-توقفي مكانك، إنّني أتكلّم معك!

وعن الأرض سحب نعلًا جلديًا أحمر باليًا، وكان يرتدي سروالًا من القماش الأزرق الغامق ذا أطرافٍ صفراء، وقميص نومٍ منتفخٍ فوق الحزام، فيما تُظهِر ياقته المفكوكة رقبة كبيرة محمرّة كالدم بحيث تسبّب نبض الشرايين في إثارة الجلد المشدود. من المؤكّد أنّه كان رجلًا وسيمًا يومًا ما لكن الكسل أثقله. وكان وجهه الحليق ذو الحاجبين الأشقرين القصيرين مستديرًا للغاية، فيما اليدان المكسوّتان بالوبر الأصفر ضخمتان للغاية، والجفون تتدلى فوق العينين حيث تومض الفكرة وتصارع النوم.

-ماذا لديك لتقوله لي؟ سألت دوناتيين.

فكتّف ذراعيه وقال:

-أودّ معرفة ما الذي قلتِه للزبون.

-غيرتك التي أيقظتك إذًا؟

-ربّما.

-تغار من هذا الطيّان!

وضحكت بعصبيةٍ بصوتٍ أعلى وأسرع ممّا أرادت، وخلال ثانيةٍ على هذا

الوجه الساخر، في موقف هذه المرأة الغاضبة والمزدرية وفي حركة ذلك الرأس الذي حافظ على الخط النقي لمشابكه، مرت صورة بريتانيا القديمة الجميلة جدًا...

-أجل، لقد انحنيت على هذا النحو واستمعت إليه وأخذتِ ذراعه... لا تقولي العكس فقد رأيتك من أعلى الدرج!

فهزّت كتفيها قائلةً:

-إذاً تريدني أن أقدّم لك سردًا لما قلته الآن؟ آه! ولكن لا! هل نحن متزوّجان؟ قل لي، أتعتقد ذلك؟

-ما الذي قاله لك؟

-هذا يخصّني!

-دوناتيين!

وبادر إلى أخذ كرسيّ وضربها به، عندها أوقعت دوناتيين السلّة وهرعت مباشرةً نحو الذي هدّدها، ووقفت قبالته على قدميها الصغيرتين ورأسها مرفوعٌ متحدّية وحاقدة، وصاحت:

-حسناً! اضربني! ما الذي يمنعك! اقتلني! ... لأن الحياة جميلة معك! ... أكرهها، هل تسمع؟ ... وأكرهك أيضًا... يمكنك فعل ذلك! ... ما الذي تنتظره؟ لا تتخيّل أنني سأطيعك وأعطي حسابًا لكلامي لك، لرجلٍ أبقيه على قيد الحياة!

وتجعدت ملامحها مع الغضب، وسرعان ما تجلّت المرأة المنهكة والذابلة الآن. وفي زاوية شفتيها المفترقتين كان هناك سنٌّ مفقود، فيما كانت الأسنان

الأخرى بيضاءَ وناعمة ولامعة، كما لمعت العيون أيضًا كقممِ الأمواج الرغوية، وكررت:

-أجل، الذي أبقيه على قيد الحياة!

أمّا الآخر، وأمام هذه العبارة الأخيرة التي كانت صحيحة، حاول أن يجيب قائلًا:

-لا يوجد عمل، تعلمين جيّدًا...

-أبدًا، لا يوجد للمعتوهين. وتابعت بعنفٍ خاصّة أنّه استسلم: أقول لك مرة أخرى إنني سئمت منك، وأنك لا تملكني في قوتك، وأنه في يوم من الأيام سأريك إياها!

-إنك كبيرةٌ في السنّ! قال بسخرية.

-ليس للخروج من هنا! ...

أغمض الرجل عينيه نصف إغماضةٍ وقال من خلال أسنانه:

-إلى أين ستذهبين إذًا؟

وساد صمتٌ تفكّر فيه كلاهما بقوّة هذا السؤال «إلى أين ستذهبين؟» والصعوبة الكبيرة التي سيواجهانها في العيش بعيدًا عن خطيئتهما و «التخلي» عن بعضهما البعض. شعرت دوناتيين بنفسها تعود مرّةً أخرى لهذا الخضوع الدنيء الذي كانت تعيش فيه، لكنّها لم تواصل النقاش واستدارت وخرجت.

باتت مستاءة، بل تعيسة أكثر منها مستاءة حينما وجدت نفسها في الخارج

وأمامها منازل لوفالوا، وفي ذهنها الرسم الحاضر لهذه المسافات التي ستسيرها، ومن بعد ذلك كان عليها أن تعود... كانت قد تجاوزت سن الدوخة بسهولة، وعلى الرغم من تجنّبها المناسبات التي يجب تذكرها أو توقعها، إلا أنّ هناك أوقاتًا ألقت خلالها لمحة عن أعماق روحها الحزينة. ربما لم ترها أبدًا بوضوحٍ مثل هذا الصباح.

هذه المحادثة غير المتوقعة مع بناء لا كروز، هذا الخلاف مع عشيقها، يا لها من أدلّةٍ على البؤس، يا لها من تذكيرٍ قاسٍ بالوحدة التي آلمتها دائمًا منذ اليوم الأول...

في الضباب الملوّث بالدخان والثمل والمتقيأ بالمجاري والحيوانات والبشر، والذي مسح الأسطح والجدران قبل أن يسقط على الأرصفة، كانت تمشي ورأسها منحنٍ، ولم تسمع بائعة الحليب تسألها: «ألا تأخذين حليبًا سيدتي دوناتيين؟ ولا بائعة الفاكهة المجاورة الذي حيّتها، وهي امرأة شابة لديها ثلاثة أطفال، والتي تعيش بصعوبةٍ أحيانًا وتحسد سيّدة المقهى التي لا عائلة لديها وتُعتبر غنيّةً في الحي.

سارت دوناتيين على غير هدي، بحيث انقلبت كلّ قوى روحها على نفسها على غير عادتها، وانشغلت بفكرة واحدة وهي أطفالها.

لطالما عانت بشأنهم، ففي البداية بكت حينما غادرت روس غربنيون وهي تنادي في قلبها نويمي ولوسيين وجويل، خاصّةً الأخير الذي كانت ترضعه عند رحيلها، والذي ذكّرها به رضيعها في باريس، إذ تذكّرت ليونة شفتيه الصغيرتين اللتين كانتا من لحمها ودمها، والتي ظلّت تطالبها بالحياة وتضغط على صدرها. آه! لو كان جويل الموهوب من الله هنا، لو كان بإمكانها تقبيل الأخريين كلّ يومين فقط، كلّ أسبوعين فقط، فقد شعرت أن هؤلاء الصغار

قد حموها من المتعة التي تغريها، من المفسد الطارئ، من المثال... لعدّة مرّاتٍ صرخت في الخفاء في بداية ندمها حينما لم يكن هناك سوى أفكار نصف مقبولة: «أنقذوني يا صغاري!» لكنّهم كانوا بعيدين جدّاً، فيما الطفل الذي أرضعته، وهو ليس لها، لم يمتلك هذه القدرة الوقائيّة. بات الخطر يلفّ كافّة جوانب هذه المرأة المسكينة القادمة من بريتانيا، والتي لم تكن جاهزةً أمام الكثير من الأعداء.

لم تكن جميع النساء الخادمات اللواتي أحطن بها في شارع مونسو -وهو أوّل مكانٍ دخلته- فاقدات للأخلاق ولكنّهن كنّ متحرّراتٍ في كلامهن، وقد اعتدن على تجاهل ما اعتبرته دوناتيين خطيئةً، وأولئك من لا عشاق لهنّ قلن مرارًا وتكرارًا إن الدافع الوحيد لسلوكهنّ هو سهولة أكبر في الزواج، فلم يحترمن أيّ فعلٍ في حدّ ذاته واكتفين بالحكم على مقدار الربح الممكن جَنيه منه، وقد كان لدى العديد منهنّ ذكاءٌ واضحٌ أكثر من دوناتيين ومن العادة أن يتحدّثن علنًا عن كلّ شيءٍ بوقاحة. كانت دوناتيين تستمع إليهن عن طيب خاطر، وأفضل ما سمعته هو عندما قيل لها برؤيتها سهلة الاقتناع: «هل تعلمين أنّك جميلةٌ أيّتها البريتانيّة بشرائط المرضعة فوق غطاء الرأس البلويغي الخاص بك، فعندما تمرين يستدير الجميع!».

لم تعرف ذلك إلا كثيرًا، فقد أخبرتها به النساء لكي تتباهى بما هو مطلوبٌ بين الخادمات عديمات الضمير، وأيضًا لكي تكسب أموالًا كثيرة، وحتى أفضل الرجال أسمعوها ذلك، وبالتالي تجمّعت الأشياء نفسها لتدميرها. كانت شابّة خفيفة الرأس، عبثيّة للغاية وميّالة لسعادتها! بدت الرفاهية سعادةً بالنسبة لها، وكانت مضطربةً ومخمورةً، كلّ يومٍ تتضاءل في وقايتها الأخلاقيّة من خلال رؤية الأموال التي تُنفقُ حولها، من خلال لمس الكثير

من الأقمشة الفاخرة من الحرير والشرائط والدانتيل الذي أمسكته مسكًا، من خلال النداء المخزي أو السري الذي لا يتوقف نهارًا أو ليلًا في المدن، والذي يأخذ الأحلام بعد العين والذاكرة، ويصبح القلب ضعيفًا، ضعيفًا جدًا.

في غضون ستة أشهرٍ سار هذا العمل الجهنمي بشكلٍ جيد، فلم تعد تكتبُ لزوجها... عُرِف أنها متزوّجة من فقير. مسكينٌ لوارن! ... كانت أوّل من ضَحكت عليه عندما سُئلت، في اجتماعات العمل أو أثناء تناول الشاي، في المساء داخل غرفة الطباخ فيما السادة بالخارج: «أصحيحٌ يا دوناتيين أنك كنتِ تحرثين الأرض وتحصدين الحصاد؟ ألم يكن لهذا الرجل قلب؟ ... أودّ رؤية صورته... قولي، هل لديك واحدة؟ أرنا إيّاه؟» ... جميعهنّ تكلمن هكذا. ألحّت النساء لمعرفة عدد الأطفال الذين أنجبتهم، ثلاثة في خمس سنوات، وتألمن لها لهذا الماضي الذي كانت تتذكّره في بعض الأحيان بلطفٍ دونهنّ.

تملّقها خدم الغرف، والحوذيون، وخدم القصر، ومن هم في الشقة ومن هم في الطوابق الأخرى، أكثر أو أقل، فقد أسعدتهم بنضارتها، بزيّها الجميل وجرأتها الممزوجة بضبط النفس. بدت لهم من عرقٍ أجنبي، وكانت من سلالةٍ جميلةٍ ببساطة، سلالة خيالية مجنونة قليلاً ومغرورة، كما كانت تضحك أكثر من غيرها، لكنّها في الواقع بدت الأكثر صدقًا بسبب الماضي الذي كان أفضل، كما سمحت بقدرٍ أقلّ من الخصوصيّة. وقد عوملت بشكل استثنائي، إذ استقرّت كمرضعة في شقّة الخدم مدلّلة بالهدايا، وهذا ما جعلها استثنائية مرّةً أخرى وعرّضها للتودّد.

في ذلك الوقت مات الرضيع فجأةً بمرضٍ غير معروف، فبكت دوناتيين عليه وعانت من الألم والخوف، فمصيرها كان على وشك التغير، وشعرت بالتعب وكادت تصل إلى جفاف حليبها. مرّت بضعة أيّامٍ ظلّت تنام خلالها

بالقرب من السادة من منطلق الاحترام لها، وحتى يكون لديها الوقت لدرّ حليبها... في إحدى الأمسيات استدعتها إحدى السيّدات، وكانت امرأة طيّبة، وهي التي يعاني قلبها الأمومي أشفقت على هذه المرأة الأخرى التي أرضعت الطفل الراحل وكانت لها كشريك في أمومتها. واختتمت حديثها قائلة: «مرضعة شقراء وشاحبة ومتّشحة بالسواد، ستبقين معنا أيّتها المرضعة أليس كذلك؟ هل ستكون هذه وسيلة للرد عليكِ لأنكِ كنتِ دائمًا تعتنين به جيدًا؟ إلى جانب ذلك هناك لدى البريتانيين، من يدري ما الذي سيُقال بعد المحنة التي أصابتنا؟ ... ومن ثمّ لا تريدين تذوّق البؤس مرّةً أخرى أيّتها المسكينة، أليس كذلك؟ إن أردت البقاء كخادمتي الثانية في منزلي فسأبقيك، ولكن لا يمكنني وضعك في الشقّة بعد الآن...» هذه المرأة الشابّة آمنت بصدقٍ أنّها تقوم بعملٍ خيري، واعتقدت أنّ ما فعلته هو الصحيح. كانت شفقتها الدنيويّة تمثّل البؤس كأسوأ الشرور، وتوجّب عليها أن تكون قدّيسةً كي تفكّر بطريقةٍ أخرى. ليس لديها أيّ فكرةٍ عمّا يحصل لخدمِها في الأعلى بعد العاشرة مساءً، ولم تملك القدرة على معرفة ذلك أكثر من الآخرين، وكان صحيحًا جدًا أنه لا يوجد مكانٌ في الشقة الجميلة في شارع مونسو لإيواء الخدم بالقرب من السادة. عادةً ما يقع الخطأ على المهندس، على المالك، على الجيران الذين فعلوا الشيء نفسه، على سعر الأراضي، على الإيرادات التي لا تسمح ببناء قصر، على مسافات الجهل وانعدام الثقة والكراهية، على انعدام الأمن في العلاقات وهشاشتها بين السادة والخدم، على الفكرة الكارثيّة القائلة بأنّ كلّ فردٍ مسؤولٍ عن نفسه ليس أكثر، على شباب هذه المرأة البالغة من العمر خمسة وعشرين عامًا والتي لم يكن لديها الوقت للتفكير في هذه الأشياء ولم تخبرها بها والدتها... وضاعت دوناتيين.

عرفت دوناتيين الممرّ المبقّع في الطابق السادس، والعليّات المفصولة

بالحواجز المثقوبة التي أُغلِقت ثقوبها بالورق، والضحك والمحادثات المشبوهة والاشمئزاز، وطرقات الباب في الليل حينما يعود الرجال من المسرح أو المقهى، والمسامرات، والأحزاب التي تتشكلّ، والحسد، والأبواب التي تُفتحُ بإشاراتٍ متفقٍ عليها، ورنين الأجراس الكهربائيّة التي تجعل عشرة رجالٍ يلعنون وامرأةً تنزل، والاستقبالات تحت السقف التي تبدأ مثل تلك التي تحصل في الطابق السفلي، دون ديكور، وتنتهي بطريقةٍ قذرة.

دوناتيين أقل من امرأةٍ أخرى يمكنها الهروب.

أصبحت عشيقة أحد الخدم، رجلٌ بغاية الجمال معروفٌ بحسنِ حظّه وصفيقٌ بزيّه، حكم على العالم الذي خدمه بثقةٍ وثروةٍ من المعلومات لرجل يبلغ من العمر ثمانية وعشرين عامًا وقد أمضى بالفعل خمسة عشر عامًا من الخدمة في باريس وفي كلّ العالم، وكان فخورًا جداً بكسبه. في ذلك الوقت كانت دوناتيين تتلقى رسائل المناشدة التي لم تردّ عليها، الرسائل التي أعلن فيها لوارن عن البيع القريب لأثاثهما هناك... وهذا ما لم تصدّقه، إذ قال لها عشيقها: «هذا لأجل أن ترجعي، أو أنه يبتزّك!»، وهكذا لم تعد ترسل نقودًا، ولم تغادر قط لإنقاذ مزرعة روس غرينيون، حتى الرسالتين الأخيرتين لم يتمّ تسليمهما إليها. ربّما قيل لها: «انظري، إذًا نسوك ويا لها من مزحة، إلى أسرتك في بريتانيا! حتى أنهم لم يعودوا يكتبون!»

وفي نفس الوقت تقريباً وبشكلّ غريبٍ بما فيه الكفاية، دعت للتخلّي عن غطاء الرأس الخاص ببلادها، فالآن وبعدما لم تعد مرضعة، وبعدما باتت تخرج بشكل أقلّ وبعدما لم تعد جزءًا من الرفاهية الخارجيّة للمنزل، لم يعد الأمر مهمّاً بالنسبة لها. لذلك أزالت شريطي الموسلين، اللذين كانا مطويين ومزخرفين ومرتّبين على طراز بلويغ، وقامت بطيّ القماش - ثلاثة أغطيةٍ

للرأس جميعها - وشدّتها بفستانها الصوفي الخشن بألف طيّةٍ ولم تعد ترتديها. بات لديها قبّعات، وباتت تموّج شعرها وترفعه، وباتت مثلها مثل الجموع. هكذا تغيّرت دوناتيين. من الضروري أن تكون مراقبًا لتتعرّف على بريتانيا من خلال هذه الخادمة الصغيرة، النحيلة والصفيقة وساطعة العيون، التي تضحك بتوتّرٍ وتبتسم بحزنٍ شديد.

مرّ الصيف، وهُجِرت روس غرينيون ولم تعرف شيئًا عن ذلك... غالبًا ما فكّرت بالأطفال وتمنّت لو تسمع أخبارهم... كما أخذها الندم في بعض الأحيان. كانت تقيّةً في طفولتها، وما يزال بسريرتها بعض الإيمان وكانت تعلم أنّ حياتها سيئة، ومع ذلك فإنّ الأفكار التي راودتها لم تكن طويلةً ولا متكرّرة. هناك في الريف الفقير، ولكي تحافظ على نفسها أو لتتعافى، كان يمكن أن يكون لديها الأعياد الدينيّة مع الطقوس التعبّديّة التي تُمارس خلالها، والقدّاس الكبير وخطبة كاهن أبرشيّة بلويغ، والإرساليّات، وحفلات التعميد، وقرع النواقيس الجنائزي، وصلاة الملائكة التي تذكر بها الأجراس، والهواء الذي يصلّي ثلاث مرّاتٍ في اليوم... كانت لتكون مضرب المثل بين مسنّات الأبرشيّة اللواتي يأتين أحيانًا لزيارة المزرعة واللائي يتسمن بالجديّة والخرف بعض الشيء، لكنّهن تركن وراءهنّ رغبةً بالعيش بشكلٍ جيّد. في باريس لم يكن لديها أيّ من ذلك... قدّاسٌ خفيضٌ، عندما تذكّرت السيّدة، يشير إلى الوقت ويمكنه التحكّم...

جاء سبتمبر، وكانت في ضواحي باريس في القصر ولم تغيّر حياتها، إلا أنّ القلق من عدم سماع المزيد عذّبها وجعلها تنكث أمر عشيقها. كتبت إلى «الآنسة نويمي لوارن، مزرعة روس غرينيون، بلويغ، بريتانيا» وسألت عن حال الجميع... مرّت ثمانية أيّامٍ دون إجابة، فظنّت أن لوارن علم ما حلّ بها،

واتّهمت زوجها بمنع نويمي من الرد. لمعرفة الإجابة كتبت إلى آنيت دومرك، الفتاة التي اختارتها بنفسها للقيام بالأعمال المنزليّة ورعاية الأطفال، فسألتها: «لماذا لا يردّون عليّ؟» وهذه المرّة تلقّت إجابةً سريعةً وقاسية: «إذاً ألا تعرفين أنّ كلّ شيءٍ قد انباع؟ لم يعد هناك أحد، رحل زوجك وأخذ طريق فونديه، وأخذ معه الأطفال». رحل؟ أخذ؟ أين هم؟ لا أحد يستطيع أن يعرف، لا العمدة ولا كاهن الرعية ولا الأب هورتيبيه الذي لم يتلقّ أيّة رسالةٍ من لوارن.

ثمّ استولى على دوناتيين اليأس وانتابها ألمٌ عاطفيّ وعنيف، وانفصلت عن عشيقها الذي اتّهمته، دون أن تدرك ذلك ودون أن تكون مخطئة أيضًا، بإخفاء رسائل لوارن الأخيرة، ورفضت أن تأكل وظلّت تبكي لمدّة أسبوعٍ وتنادي مرارًا وتكرارًا «نويمي، لوسيين، جويل!». كان الجميع على استعدادٍ لتحمّلها لأنّها ماهرة وحيويّة في الخدمة، ولأنّها مرضعة الطفل الصغير الميّت. لكن سرعان ما تدهورت صحّتها ونُقِلت بعد ظهر أحد أيّام نوفمبر إلى المستشفى، وشخّص الطبيب إصابتها بالحمّى المخاطيّة. بعد ثلاثة أيام أرسلت المرأة الشابة التي تعملُ لديها للاستفسار عنها، وقالت لعدد قليل من الأصدقاء الذين اجتمعوا قبل العشاء: «تلك الفتاة الصغيرة لدي، هل تتذكرونها؟ البريتانيّة؟ حسناً! إنها بحالةٍ سيئةٍ للغاية، إذ بلغت حرارتها الـ 41 درجة في اليوم التالي لمغادرتها هنا... كانت لطيفة، أليس كذلك؟ ومن ثمّ فهيَ أمّ حكيمة وطيبة: إنها تموت من حب أطفالها كثيرًا... زوجٌ سكّيرٌ، ربما، أخذهم بعيدًا وتركها بدون أخبار... أمرٌ محزنٌ أليس كذلك؟»

في الواقع كادت دوناتيين أن تموت، لكنّها تعافت ببطءٍ شديد، وحينما غادرت المستشفى بدت ضعيفةً لدرجة لم تفكر بدخول مكانها على الفور،

وفقيرةً جدًا لدرجة لم يكن لديها ما يكفي للعيش إلا لبضعة أسابيع؛ وتغيرت جسديًا لدرجة أنها شعرت بالخجل من العودة إلى شارع مونسو، حيث لم يعد مكان الخادمة الثانية متاحًا بلا شك. ولكن حيث كان من الممكن مساعدتها بطريقة ما، والتوصية بها، وتوجيهها إلى صديقٍ ما يبحث عن فتاةٍ صادقةٍ جدًا. لم ترد الالتقاء في هذا المنزل بالرجل الذي باتت تكرهه الآن، ولا أن تظهر نفسها له وللآخرين بصدغها الأصلع وخدّيها المجوّفين وعينيها اللتين أصبحتا غير متساويتين بعض الشيء ولا يمكنها التحديق بشيءٍ دون حَوَلٍ وانقلاب الضعف في المحجر.

أقامت في غرفةٍ مفروشةٍ وهي لا تعرف ما عليها فعله مطلقًا، وبحالةٍ من العجز شأنها شأن العديد من الخدم في أعقاب المستشفى أو الفصل من الخدمة. راودتها أفكارٌ للعودة إلى بريتانيا، ولكن كيف ستجد لقمة العيش في بلويغ؟ ما هي طريقة الكسب في منطقةٍ شديدة الفقر، إضافةً إلى سوء تصرّفها، بعد رحيل لوارن؟ ... كلّ هذا سيجعلها تعاني وبشدّة، نعم... عانت بالفعل من ألمٍ شديدٍ وأصبح حزنها الطفولي على الساحل البريتاني مؤلمًا للغاية! فشلت محاولة قامت بها للتصالح مع والديها صيادي إيفينياك حينما اعترفت أنها لن تجلب أية مدخراتٍ أو مهنةٍ إلى المنزل، وبدأ البؤس يقترب مرّةً أخرى. وقبل استجماعها لقواها، خاطرت دوناتيين بآخر عشرين فرنكًا لها في مكتب توظيف، ودخلت مكانًا جديدًا مع امرأة لديها ابنتان للزواج، لكنّها لم تستطع البقاء هناك لأنّها اضطرّت إلى السهر كلّ ليلة. انعزلت واستولى عليها اليأس الكلّي مرّةً أخرى، وسرعان ما أمست الحياة سيئة.

لم تعد تسعى للإرضاء والتألّق، بل باتت تخشى الموت جوعًا، لذلك وبدون تجربةٍ وبمقاومةٍ أقلّ من المرّة الأولى، مغمضة عينيها وبشكل معيبٍ وحازمٍ

كما لو أرادت إلقاء نفسها في النهر، «ذهبت» مع رجلٍ آخر، وفقاً للتعبير الشعبي، مع حوذيّ سابقٍ ثريّ وقاسٍ وسكّير، والذي تقاعد من الخدمة وكان يتطلّع لشراء علامةٍ تجاريَة. وكما هو الحال دائمًا اشترى مقهى وكلّف دوناتيين بتسيير أعمالها، ولمدّة ستّ سنواتٍ عاشا في علاقةٍ زوجيّةٍ في مقاطعة لوفالوا. كانت تعتني بالأعمال المنزليّة والطهي، وتخدم الزبائن ما عدا في الصباح خلال الساعة التي تقضيها في المشي في كافّة أنحاء الحي لشراء البقالة، كما أمسكت بالحسابات وعملت برتق البياضات في وقت فراغها. نجح المقهى بفضل نشاط دوناتيين، بفضل روح النظام لديها ونوع السلطة التي مارستها حولها، وكذلك بفضل العادة التي كانت لديها والتي أغرت زبائن الضاحية للتحدّث إليها بأدب. أمّا باستيان لاراي الذي عاشت معه فبالكاد ساعدها، فقد كان يظلّ في الخارج طوال اليوم بحجّة تموين الخزائن والقبو، وأيضًا بحجّة البحث عن وظيفةٍ كسائق، وهو ما كان سيأسف لمقابلته، فلديه أفضل من ذلك، وكان قد تقاعد. كان يعود إلى المنزل ثملًا مرتين من كلّ ثلاث مرّات. كانت دوناتيين تقوده لأنّها أذكى منه، ولكنّه قبل مطاوعتها يضربها لأنّه الأقوى. لم يحبّا بعضهما البعض ولم يخدعا بعضهما البعض، لكنّهما لم يعرفا كيف يبتعدان عن بعضهما البعض وكيف يعيشان بعد ذلك. كلّ هذه الرعاية، كلّ هذا الألم، كلّ هذا الصبر الذي تجده الأمهات والنساء المحبوبات في امتنانٍ صادق وفي حنان أبنائهنّ أو أزواجهن، أمضته دوناتيين دونَ أن تدري في المقابل حلاوة الشكر، دون أحلام المستقبل، دون السلام الذي لم تكن قادرة على إيجاده بداخلها.

حاولت إيجاد السلام، أو على الأقلّ إيجاد الصمت والفراغ في روحها، وكرّست نفسها لمطاردة تلك الذكريات الدينيّة وتلك الملامات الضميريّة التي تتوالد من جديدٍ كبراعم جذرٍ مقطوعٍ بالقرب من الضوء. وقد انتصرت

إلى حدّ ما. في حياتها اليومية المزدحمة والممتعة باستمرار، وفي الحركة والضوضاء التي أحاطت بها، وجدت طرقًا لإزالة صورة الماضي غير المرغوب فيها. في بعض الأحيان استولت عليها الرغبة التي لا تُقاوم لحنان الأم وحطمتها وتركتها بلا حولَ ولا قوّة في مواجهة نهجِ كلّ شيء آخر، في مواجهة الأشياء والأشخاص الذين اعتقدت أنهم منسيون. عندها حاولت تشتيت ذهنها، فتحدّثت مع الزبائن ولعبت الورق معهم، أو حتى عهدت بالمقهى إلى جارتها وخرجت لوحدها أو برفقة عشيقها للتنزّه في شوارع باريس وسط الحشد. ومن الحجج التي استخدمتها في ذلك الوقت في أعمق أسرار قلبها، لمحاربة مثل هذه العواصف، هي استحالة أن تجد نفسها في حالةٍ من عدم القدرة على القيام بأيّ من الواجبات التي تخلت عنها، والمتمثلة في معرفة ما إذا كان أطفالها وزوجها ما يزالون على قيد الحياة. ألم يستسلموا أبًا أو أولادًا -وربما جميعهم- للبؤس المتجول الذي هو أصعب من الآخر؟ سبع سنواتٍ كاملةٍ دون أخبار، سبع سنوات...

وها هي فجأةً علمت أنّ جويل، وهو طفلٌ صغيرٌ في سنّ طفلها وقد جاء من بريتانيا، شوهد في لا كروز... ولم تستطع معرفة ما إذا كان هو طفلها، لكنّ هذا كان كافيًا لكسر الهدنة. ظلّت فكرة المتروكين تسيطر على تلك الروح التي كانت قادرة على إبعادها في منتصف الطريق، وعادت مع اسم جويل، والشك، والقلقِ، الاتهامات التي لم تجد دوناتيين ما يجيب عليها، كلّ ذلك عاد للحياة. قالت دوناتيين لنفسها أثناء مشيها بسرعةٍ في الضباب: «من أجل لا شيء! إنّني أعذّب نفسي من أجل لا شيء! ... أليس هناك من يحمل هذا الاسم في بريتانيا سوى طفلي؟ ... وبما أنّ البناء رأى ولدين وفتاة في الفناء المحاط بأشجار الحور فهذا ليس هو... لا، لم يمكن أن يكون طفلي. ناهيك عن أنّ الأب، كما كنتُ أعرفه، لا بدّ أنّه مات من الألم الذي سببته له... لا بدّ أن

زوجي قد مات»...

أمّا الموزّدون الذين مرّت بهم فقد وجدوا بها عيونًا حالمة، ولم تتوقّف أبدًا بغية الكلام. «لدى السيّدة دوناتيين أمرٌ ما بلا شك» هكذا قالت الخبازة وبائعة الخضار وطاهية الحلويّات، والتي كانت سيّدة حقيقيّة لديها ابنة ظلّت دوناتيين تنظرُ إليها بسبب عينيها الحنونتين على الحياة المجهولة... ولكن من يستطيع أن يخمّن سبب ارتباكها؟ لا أحد خمّن ذلك.

متى سيعود هذا البناء؟ ليس قبل أربعة أشهر. لقد قدم تفاصيلَ كانت قريبةً من الحقيقة بغرابةٍ مع تفاصيل أخرى أثارت الشكوك...

ظلّت دوناتيين في الخارج لفترةٍ أطول من المعتاد.

عندما عادت كان المقهى نصف ممتلئ، وكان باستيان لاراي جالسًا على كرسيّ محميّ بمرآةٍ زجاجيّةٍ حيث كانت تجلس خلال ما بعد الظهر. أعطاها ابتسامةً وديّةً لم يكن مسرفًا بها، ومناديًا إياها بصوتٍ واهن، وبتلك الغمزة التي جعلت أهل الحيّ يقولون «إنّها أسرة جيّدة»، سألها:

-هل بدا وقت خروجك قصيرًا؟ ... جاء بعض الزبائن كما ترين وخدمتهم مكانك... هل أصبحت أفضل بعد نزهتك على الأقل؟ ... لا؟ ... هل ما زلت غاضبةً مني؟ ... ما رأيك بالذهاب إلى المسرح الليلة، أخبريني؟ ...

وأوقف صوت قرشٍ ضُرِب بالرخام بداية الالتماس، فأجاب باستيان لاراي كما لو أنه يصدر أمرًا بصوتٍ عالٍ:

-انظري إلى الطاولة 15!

وذهب بنفسه لتلقّي ثمن كأسٍ من البيرة.

صعدت الشابّة الدرجتين المؤدّيتين إلى المنصّة، فيما لاحظها الزبائن الذين عرفوها وآخرون أيضاً لوقتٍ أقصر. استمرّ النهار وانتهى وسط الضباب، وعبرت الخيول من أمام الباب كما لو كانت في طقسٍ ثلجي، وانغمس الدخان المنبعث من الريح حتى علوّ النوافذ في دوّاماتٍ مخفّفةٍ يمكن التعرف عليها، وهذا ما كانت دوناتيين تنظر إليه حينما رفعت رأسها عن دفتر حساباتها.

وقالت في نفسها: «ليس هذا ما كان عليّ إخباره لهذا البنّاء الآتي من لا كروز الذي جاء هذا الصباح، بل كان عليّ أن أسأله أكثر... أين أجده الآن؟» تغلغل في قلبها الارتباك والعذاب: كيف لم تلحّ على اسم القرية التي يعيش فيها جويل أو اسم قريةٍ مجاورةٍ لها؟ كانت ستكتبُ للأطفال، لكنّ المفاجأة والعاطفة وخيبة الأمل السريعة منعوها من فعل ما ينبغي عليها فعله... ولكن لا... هل باستطاعتها الكتابة للأطفال؟ ما الذي ستقوله؟ أيّ عذرٍ يبرّر تخلّيها عنهم؟ ولو كانوا على قيد الحياة، ولو كان كلّ من نويمي وجويل هناك، ألن يكون لديهم رغبة أو أمر بالرد عليها بقسوةٍ كما لو أنّها أمّ لا تستحق؟ ... أوه لا! ما من رسائل. كان الأمر جيدًا على هذا النحو بشكلّ عام... لكن كان عليها الانتظار لأشهر... وبعد ذلك، فيما ستعاني كثيرًا من الانتظار، ما الذي ستعرفه؟ ربّما لا شيء! ... ألم يكن هذا الرجلُ محتالًا؟ ساخرًا سيئًا أرسله شخصٌ يعرفُ أنّها متزوّجة ويريد حملها على الاعتراف بجريمة حياتها؟ ... ومع ذلك بدا بسيطًا جدًا... لم يضحك في أيّ وقت... حتّى أنّه بدا كرجلٍ صالح، ربما باستثناء تلك الجرأة التي يتمتعون بها مع نساء مثلها، صغيرات السن وما زلن جميلات.

ومتعبة للغاية قالت في نفسها: «آملُ أن يكون ذلك صحيحًا، وحتى لو حُرمتُ منهم على الدوام، أودّ معرفة أنهم أحياء، وأنّهم جميلون، وأين هم»...

(8) أي العامل الذي يشتغل بأجرٍ يومي ولا يعد ضمن طاقم العمّال الثابتين في وظيفةٍ ما.

X

المسرح

في المساء، وبعد تناول وجبة العشاء في الغرفة الخلفيّة، ارتدت ملابسها وكانت بحالةٍ جيّدةٍ رغم اجهاد وجهها، بقبّعتها ذات الريش الورديّ والأسود وشالها المصنوع من الفرو الرمادي، وكانت تمشي بصورةٍ جيّدة، وتحت القفّازات أخفت جلد يديها الصغيرتين المقطّعتين والمتفسّختين جرّاء العمل. أخذها الرجلُ سريعًا، وقال الجيران الذين لا يضيّعون أيّ حدثٍ في الشارع أو في المقاطعة: «ها هما في طريقهما إلى المسرح مرّة أخرى: أراهن على ذلك. إنّهما يكسبان الكثير، لكنها هي من تجعله ينفق كلّ هذه الأموال. إنّها تحبّ المتعة فقط».

وبربطةِ عنقٍ معلّقةٍ ببريقٍ زائف، وبسترةٍ منتفخةٍ فوق الصدر وبهيئةٍ منتصرةٍ ووقحة، سار باستيان لاراي بالقرب من دوناتيين، وسعى لإزالة التأثير الكارثيّ لأعماله الوحشيّة خلال الصباح، وقد رأى بوضوحٍ أنّ دوناتيين هذه قد قالت الحقيقة في لحظة غضب، وأنّها ستتركه دون الحاجة إلى سبب... استقلّا القطار وسرعان ما وصلا إلى الجادات، وكانت الساعة التاسعة تقريبًا.

وعندما دخلا الصالة المضاءة بدأت المسرحيّة. ساد الضحك، ووضعت الكلمات نفسها التعبير ذاته على وجوه المتفرجين القلائل في المدرج الذين اضطروا إلى النهوض للسماح لكلّ من دوناتيين وعشيقها بأخذ مكانهما في الصف الأول باتجاه المنتصف. بالفعل كان في قمّة الانسجام، فيما أرادت هي الدخول إليه للهروب من الفكرة المؤلمة التي تبعتها منذ الصباح. أحبّت

المسرح، وأنفقت الكثير من أجرها حينما كانت خادمةً «لتضحك على أعمال الكوميديا» على حدّ تعبيرها. وبالثقة التي ذهبت بها لأوّل مرّة، وبوجهها المرفوع وشفتيها المفترقتين والمغمغمتين: «العفو»، وبالإيماءة التي أرجعت بها فستانها نحو اليسار، جلست، ودون أن تنظر إلى الممثلين بدأت بإلقاء نظرة على الصالة مشيرة إلى الحضور الممتدّ.

وسرعان ما اتكأت على الحاجز الأحمر المخملي، وأجهدت عقلها لهذه المسرحيّة الجارية في الأسفل حيث تتصاعد الكلمات التي من المفترض أن تثير الضحك. ولكن يمكن القول إنّ ما وصلها لم يكن أكثر من قشور كلماتٍ فارغةٍ وأصوات مبهمةٍ لا تلمسها، وفي المقابل كان هناك أصوات أخرى لا أحد يتلفّظ بها، لا أحد يعرفها، والتي سمعتها وهي تتلاطم كالأمواج داخلها: «نويمي! لوسيين! جويل!». تلك الكلمات التي حملت معها كلّ دراما حياتها لم تستطع إلا أن تسمعها، ولم تستطع أكثر من منع ينبوع المياه من التدفّق. لم يحرّرها المسرح من نفسها. نظرت إلى الأوركسترا وغرف الملابس والزينة... غير أنّ الاضطراب العميق في قلبها لم يهدأ. في المقابل شعرت بألمها المتزايد أمام هذا التباين الذي شكّله معها المكان والحشد، وغير قادرة على تحمّل ذلك التفتت نحو عشيقها وأرادت أن تقول له: «خذني!». وعلى الجانب الآخر من باستيان لاراي، وحتى قبل أن تفتح شفتيها، رأت وهي جالسة على إحدى مقاعد المدرج امرأة فقيرة مثلها، شابّة وذات خدّ مورد، وقد جاءت مع طفلها الذي ربّما يبلغ من العمر عامين، والذي تحمله ضاغطةً عليه من الصدر للصدر. يتدلّى الرأس الأشقر على كتف الأمّ، ويرفع التنفّس الثابت الرأس الصغير الذي يهتزّ أحيانًا في المنام ومن ثمّ يتدلّى مرّةً أخرى.

ونظرًا لأنّ المرأة كانت بالقرب من الحاجز، وقد بدا اهتمامها منصبّاً على

المسرحيّة التي تؤدّى، قالت دوناتيين لنفسها: «لو تركت الطفل! لو أرخت ذراعيها قليلاً سيجري داخل الصالة وسينكسر هناك! كم هو جميل هذا البريء!». نظرت إليها طويلاً لدرجة أنّ الأمّ لاحظتها أخيرًا، وأدركت الامرأتان أنّ كلّاً منهما أم. لم تذهب دوناتيين أبعد من ابتسامةٍ حزينة، لكنّها بدأت تعتقد أنّها لو حملت ذلك الصغير على ركبتيها فستشعرُ بحلاوةٍ في القلب، غير أنّها لم تجرؤ على قول ذلك. أمّا الأخرى فقد اندمجت مجدّداً، وعيناها مثبّتتان، نحو المشهد الذي يؤدّى في الأسفل فوق الخشبة، ومع ذلك بقيت دوناتيين نصف مائلةٍ تجاه الطفل، وشعرت أنّها غدت شاحبةً كما لو أنّ مصدر حياتها قد تمّ الوصول إليه. المسرح، الكلمات، الضحكات، كم كان كلّ ذلك بعيدًا! والرجل الذي حضر هذه الكوميديا ولم يكن لديه أدنى فكرة عما يدور بالقرب منه، كم بدا غريبًا جدًا على نفسها، وكم كان كذلك بالفعل! ما رأته كان آخر الصور التي تركتها لها الحياة المشتركة، الصور التي رفضتها لسنوات، ها هي منتصرةً بمرارةِ الليلة ومدمّرةً لروحها: رأت منزل روس غربنيون على قمّة التلّ الصخري، وحقل الحنطة السوداء وحقل الجودر اللذين يشكّلان شريطين واضحين، في أسفل التل وما وراءه، حول المستنقع والغابة التي تغنّي في مهبّ الريح. كما رأت الغرفة مع السرير والمهد، والباب الذي ينفتح على الإسطبل، ورأت الأطفال الثلاثة يحيطون بها حينما تعود من الحقول. «أين أنتم أحبّتي؟ أصحيحٌ أنّكم ما زلتم على قيد الحياة؟».

أجل تمّ بيع كلّ شيء، وآخرون قاموا بزراعة الحقول الفقيرة حيث أتلف لوارن ذراعيه. انتهى الأمر، ولم تعد دوناتيين راغبةً في استئناف حياتها القديمة، ولكن في هذا المسرح، ورغم جنونها، بدا لها بالتأكيد أكثر من أي وقت مضى أنها بانفصالها عن أطفالها انفصلت عن فرحة لا نهائية، عن فرحة دائمة كانت في يوم من الأيام صغيرة وخفيفة جدًا لدرجة يصعب معها

فهمها. في الوقت الحالي أمست عزلاء أمام الأيدي الصغيرة وأذرع وعيون وشفاه صغارها الثلاثة التي عرفتهم من حولها، «أوه! الصغار، الصغار، كيف يمكن للأمّهات أن تتركهم بشكل آخر غير الموت؟ ما الجنون الذي أخذني للذهاب والعمل في باريس؟ يا لها من حماقةِ أخرى للبقاء حينما كنتُ حرّةً في العودة! ... أفتقد إلى عناق أياديكم، وأشتاق إلى ثقل أجسادكم على ركبتي. إنّني أعاني!». من الواضح أنّها كانت تعاني من الألم لدرجة أنّ باستيان لاراي استدار وسألها، ووجهه طافحٌ بالبهجة والإشراق:

-ألا تضحكين يا دوناتيين؟

-لا.

-ألم تسمعي شيئًا إذًا؟

-لا.

-لم أدفع لك أجرة مقعدك لأجعلكِ تبدين هكذا! ما الذي يلزمكِ؟

وبعد أن سمعت الجارة اللوم نظرت نحو دوناتيين، وببطءٍ وهدوءٍ هزّت جذعها الصغير المرن ممّا أدى لاهتزاز الطفل، ورأت اليدين المرتديتين للقفازات نصف ممتدّتين نحوها بشكلٍ مبهمٍ ومتردّد، وسمعتها تقول:

-هل بإمكانكِ إعطائي إيّاه لأهزّه قليلًا سيّدتي؟

-هل هذا سيجعلكِ سعيدة؟

-هذا سيفيدني: لم يعد لديّ...

كانت شاحبةً جدًا لدرجةٍ رأت المرأة أنّها تقولُ الحقيقة وشعرت بالأسف

عليها.

-أنت سخيفةٌ يا دوناتيين! قال العشيق.

غير أنّ المرأة أخذت الطفل برفق، وخلف ظهر الرجل المحتج، أمام فرحة المجاورات، على فضيحة المجاورين الذين قالوا «اصمتن أيّها النساء!» أعطته لدوناتيين مع القليل من الخوف. وبدورها، وحينما أرخت فستانها الأزرق والأبيض، لم تعد مهتمّة بالاستماع إلى المشهد أو مشاهدته، وامتلكها أسفٌ واحد. ودون أن تتوقف عن الابتسام، من باب التأدب، غالبًا ما ظلّت تنظر بعينيها باتّجاه دوناتيين، وهذه الأخيرة وضعت الطفل على ركبتيها وأحاطته بذراعيها، وبأموميّةٍ، وبلا حراك ومنحنية كالمهد، شاهدته وهو يغفو. انتابتها قشعريرة لم تستطع تهدئتها، ليس من اللذة كما كانت تعتقد، ولكن من الحزن والندم العميق...

أنهى الممثلون المسرحيّة وأسدل الستار.

-كفى هراءً! أعيدي الطفل ودعينا نذهب! قال الرجل.

لم تجب أبدًا، ورفعت جسده الصغير الدافئ إلى شفتيها، وترددت للحظة كأنها خجِلت واعتبرت نفسها غير جديرة، ثم سرعان ما قبّلت خده الوردي الذي تجعّد تحت القبلة.

-شكرًا! قالتَ وهي تعيد الطفل لأمّه.

وغادرت برفقة باستيان لاراي.

كانت الساعة الواحدة صباحًا عندما عادا إلى شقة لوفالوا الصغيرة فوق المقهى. ذهب الرجل، المرهق وغير الراضي، إلى الفراش دون أن ينبس ببنت

شفةٍ تقريبًا، وخلعت دوناتيين ملابسها ببطءٍ، وعملت على تضييع الوقت عن قصد بالتجوّل في غرفتها، ففي ذلك المساء ودّت أن تتمدّد على السجادة أو على كنبة. ولما رأت عشيقها نائمًا اضطجعت بدورها، لكنها ابتعدت عنه قدر المستطاع وبكت في الليل.

وهكذا مرّ ندمٌ في حياة دوناتيين، ولكن لم يحدث أيّ تغييرٍ كبيرٍ بعد هذه المعاناة، حتى أنّها تلاشت كغيرها على مرّ الأسابيع. لا أحد يعرف السر. عملت الأم على محاربة الأوهام التي راودتها، وعلى إقناع نفسها أنّه لن يكون هناك عودة لهذا الرسول الذي أقلقها كثيرًا.

مرّ الشتاء، وبدأ شهر مارس بتمزيق غيوم الشتاء، وفي كلّ صباحٍ تفتح دوناتيين واجهة المقهى وتبحثُ عن الرجل الذي وعد بالعودة.

لم يأت إلى هنا، ورغمًا عنها راودتها خيبة أمل. وأثناء إشعالها النار، وأثناء غليها للقهوة، كانت تفكّر خفيةً بأولئك الذين تركتهم، وكان حزنها العميق هو عدم قدرتها على تخيّلهم كما ينبغي أن يكونوا عليه الآن، هؤلاء الأطفال الذين خرجوا من رحمها. لم يكونوا ينظرون إليها، لم يكن لديهم ابتسامة، وكانوا عاجزين عن الكلام. ما هي الطريقة التي عليهم أن ينادوها؟ كم بات طولهم، وأي ملابس؟ ...

كلّ هذا يعذّبها حتى وصول الزبائن الأوائل الذين ينقذوها من بؤس روحها.

واستمرّ شهر مارس بالتباطؤ بمضيّ أيّامه.

XI

ما حدث

بعيداً عن باريس، وبعيدًا للغاية عن بريتانيا، كان هناك سهلٌ حيث تمتلئ الأرض بالتلال والوديان، وعلى الجانب الشماليّ تنحدرُ هضبة عالية بشكل عموديّ بعض الشيء في الوادي وتغلقه، وثمّة مرتفعات تنفصل عن بعضها البعض في الشرق والغرب لإحاطة هذا السهل الذي يشبه السلّة، الأخضر في الربيع والمتلوّن بلون الصفصاف الجافّ عند انتهاء الصيف. من الممكن الحكم على مدى اتّساعها من خلال بطء السحب مع هبوب الرياح في سماء المنطقة، وحينما لا تهبّ الرياح كالعاصفة فإنّها تستغرق قرابة نصف يومٍ لتختفي. أمّا الرعاة الذين اعتادوا على التأمّل بها فكانت عيونهم حالمة، ويقودون قطعان الأغنام والخنازير عبر مستنقعات الهضبة حيث تتلألأ البرك الضحلة بين الخلنج والجودر. فيما كانت القرى في السهل متباعدة، وحينما يكون الطقس جيّداً يمكن التعرّف عليها من بعيد، ليس من خلال أطراف أبراجها لأنّ كنائسها ذات أبراج مربّعةٍ صغيرة، بل من خلال اللون الأحمر لأسقفها المكسوّة بالقرميد. وسط الأراضي الفرنسية، وهي منطقةٌ مسجونةٌ بالعديد من الأراضي بحيث لا تصل إليها رياح المحيط ولا رياح الجبال العظيمة دون أن تتكسر أجنحتها، هذه المنطقة التي يطبخ فيها الصيف القمح الذي ما يزال حليبيًا، وغالبًا ما تجفّف الثمار في اخضرارها.

وغير بعيدٍ عن مدخل السهل تصعد الطريق بعد أن تنزل ومن ثمّ تنزل مرّةً أخرى، وفي أسفل المنحدر الثاني تمرّ على بعد أمتارٍ قليلةٍ من منزلٍ لفقراء: غرفتان تحت سقفٍ من القرميد القديم، متصدّعتان ومنفصلتان، تغطيهما

طبقةٌ من الغبار والأوراق الميّتة ويتفاوت مظهرهما باختلاف الفصول. وفي الحقل بضعة بُرَقِعٍ من الملفوف والجزر، وبركة وبئر بعيد قليلاً، وبضعة أحواض زهورٍ ضيّقةٍ مزروعة بأزهار المنثور. وفي كلّ مكانٍ حول هذا الحقل النحيل الذي بدا على هيئة إسفين، يستدير سياجٌ نباتيّ سميك ويحيطُ ببضعة جذوعٍ من أشجار الحور التي تقطع ستّة أمتارٍ من الأرض وتنتج بعض الحطب: هذا كلّ شيء. وفيما وراء ذلك تغطّي المروج وحقول القمح والبرسيم الأرض بخطوطها العريضة. لم يكن هناك مبنى مجاور: فقط طريقٌ متوسّطة الحجم ومتفرّعة عند زاوية السياج، تؤدي إلى القرية التي يمكن للمرء أن يخمنها لجهة اليمين، بين أشجار البساتين، على بعد نصف كيلومتر.

كان النهار بارداً في العشرين من مارس، وهبّت الريح من الهضبة الأرجوانيّة، ومن فوق السهل حملت بساطًا كثيفًا من السحب الذي بدا وكأنّ لا نهاية له. لأكثر من أسبوعٍ ظلّت السحابة تنزلق باتّجاه الجنوب، وفي بعض الأحيان فقط، ومن خلال صدعٍ في هذا السقف، يسقطُ وابلٌ من أشعّة الشمس ويومض زاويةً من الريف، بحيث برزت أدقّ التفاصيل بوضوح: قطيع، عربة سائرة، رسم الخنادق والسدود، الديك الذهبيّ لبرج الكنيسة أو دوّارة الرياح. بعد ذلك من الممكن الرؤية، عبر اللون الرقيق للمروج ومجموعات الأشجار، أن ذاك الربيع قد بدأ وأنّ ثمّة براعم فوق الأغصان، غير أنّ لا الريح ولا السماء يقولان ذلك. صفرت الريح، وفي الحقل الهزيل على جانب الطريق صفقت الغسيل الذي نشرته طفلة. لقد غسلته في بركة حيث ما يزال الخيط الذهبي منقسمًا وتحاول الانضمام معًا في ملاءة موحدة هناك في نهاية الحديقة على الجانب المقابل للطريق، والآن وبعد أن وضعتها على عربة يدوية أخذتها قطعةً تلو أخرى، القمصان والمناديل، سراويل الأطفال ومناشف الشاي، وفردتها وثبتتها بملاقط خشبيةٍ على طول

حبلٍ ممتدٍّ أمام المنزل في اتجاه رقعٍ من الملفوف إلى الطريق الرئيسي. كانت القمصان المنتفخة تضرب الهواء بأذرعها، وتجعّدت مربّعات القماش وتموّجت ورفرفت، وواصلت الطفلة الرزينة عملها الذي بدأته عند نهاية الحبل بالقرب من العتبة.

لم تكن كبيرة في العمر لكنّها رشيقة وحسنة القوام، ونحيلة بلا شكّ أكثر من فلاحةٍ عاديّة. ثمّة شخصٌ ما يراقبها باهتمامٍ في الوقت الحالي، شخصٌ لم ترَه، رجلٌ يرتدي زيّ عاملٍ ببدلةٍ غير لائقةٍ من قماشٍ مضلّعٍ خشنٍ وداكنٍ وعلى رأسه قبّعة مستديرة مهترئة، ويحملُ على كتفه عند طرف عصا صرّةً ضخمةً ملفوفةً ببلوزةٍ بيضاء. كان قد جاء من قاع السهل وقد غطّى الطين حذاءه الكبير المصنوع من الجلد الخام، وكان يمشي عكس الريح وقد احمرّ وجهه ودمعت عيناه من وخز الهواء هذا. وبرؤيته الصغيرة قبل مئة مترٍ من الحديقة تباطأ، واقترب بخطواتٍ بطيئةٍ وتوقّف كثيرًا لالتقاط أنفاسه مثل رجلٍ مرهق. كان متعبًا قليلًا، وأراد قبل كلّ شيءٍ أن يراقب هذا المنزل وهذه الحديقة والأشخاص الذين سيجدهم هناك، وحاول ألا تلاحظه ناشرة الغسيل مبكراً.

أمّا هي فلم تكن تفكّر إلا في عملها: تأتي وتذهب، تنحني وتنهض، وهذا ما منع المسافر من تمييز وجهها الذي يستدير أحيانًا ويختبئ أحيانًا أخرى خلف قطعةٍ مغسولة أو خلف الأذرع التي تنشرُ القطعة. كانت ترتدي تنورةً قصيرةً تبرزُ زوجًا من القباقيب، وفوق أرجلها النحيلة بشدّةٍ ثمّة جوارب كانت حمراء ذات يومٍ لكنّها أمست الآن زهريّة باهتةً ومرقّعة بكاملها. أمّا التنورة فسوداء كالصدار، وأمامه ارتدت مريولًا قطنيًا أزرق وضعته لأجل الغسيل، ولكنّها لم تخلعه رغم تبلّله بالكامل وتقلّصه على شكلِ صرّة. وحينما باتت المسافة

لا تزيد عن خمسة عشر خطوةً توقّف الرجل عند زاوية السياج الذي يحيط بالحديقة، وعلى وجهه الهادئ تركت العاطفة بصماتها. شدّت زوايا شفتيها الثقيلتين المشقوقتين. تعرّف على الطفلة التي رآها من بعيدٍ وجلست هنا منذ قرابة عام، وكانت تقترب من السياج النباتيّ وبالتالي من الطريق: بدت جميلة في الملامح وكذلك في الجسم مع عيونٍ داكنةٍ ورموشٍ طويلةٍ وفمٍ متناهي الصغر... مثل فم دوناتيين، وبشرة شاحبة وذقنٌ مدبّب وهيئة حزينة ومتحفّظة. أرجحت الريح تنورتها وبضع خصلاتٍ من شعرها، غير أنّ بنيان شعرها البني، المتلوّن بالكستنائيّ المخبوز، بدا صلبًا وعاليًا كخوذةٍ صغيرة، وبدون ملابسها البالية كانت لتبدو كفتاةٍ مدينة. لا شيء تغيّر مكانه في الحقل ذو الهكتارات القليلة... أجل... طفلةٌ في الخامسة أو السادسة من عمرها هناك في إطار باب المنزل.

تذكّر البنّاء الوعد الذي قطعه على نفسه بالتحدّث عند عودته إلى هؤلاء الأشخاص، الذين قيل إنّهم قدموا من بعيد، وإحضار معلوماتٍ عنهم. كان ذاهبًا نحو الهضبة لركوب القطار المتوجّه إلى باريس من هناك، وثمّة بضعة أمتارٍ تفصله عن الفتاة الصغيرة التي كانت تنشر قميصًا قطنيًا بحيث هبّ عليه النسيم البارد على الفور ونفخه. سعل الرجل ليعلن عن تواجده، فارتجفت الطفلة وجفلت وهي ما تزال حاملةً لملقطٍ خشبيّ أرادت وضعه على الحبل، وبعد أن نظرت إلى الطريق من فوق السياج تعرّفت على العابر الذي وضع صرّة ملابسه على حافّة الخندق وكان يمسح وجهه بظهر كمّه. لم يبدُ لها شريرًا، وكانت في دارها على الجانب الآخر من السياج، فلبثت في مكانها، وحاول العابر أن يُصدر صوتًا ناعمًا فقال:

-هل هناك طريقةٌ ما للحصول على كأسٍ من النبيذ يا عزيزتي؟

بدا له أنه وجد، وأجابت بدورها:

-لا يوجد سوى الماء هنا.

-حسناً! كأسٌ من الماء لأنّني عطشان.

وقبل أن تجيب تأكّدت مرّة أخرى أنه لا يبدو طوّافًا خطيرًا، ونظرت إلى القرية، ومن ثمّ قالت بحيويّة وجديّةٍ دائمة:

-سأحضره لك!

وخلال دقيقةٍ هرعت نحو المنزل وسحبت الماء من الدلو، وعادت وهي تحمل في نهاية ذراعها كأسًا ممتلئًا ألقى منه الماء المتحرك ومضاتٍ زرقاء، وقالت:

-إنّه ماءٌ نظيفٌ وطازج، وسترى ذلك.

فرفع قبعته وشرب منه بلعةً واحدة، وهزّ الكأس ممسكًا به فوق الأشواك، وقال:

-شكراً لك آنسة نويمي!

أخذت الكأس ثم بقيت بلا حراك، ونمت الدهشة في داخلها وأصبح التعبير الجاد لهذا الوجه الشاب عدائيًا أو قلقًا.

-لا أنادى بآنسةٍ على الإطلاق، ولكنّ اسمي هو نويمي على أيّ حال. كيف عرفته؟

-رأيتك العام الفائت حينما عبرت للذهاب نحو باريس لقضاء موسمي. أفلا تتذكّرين؟

-أبدًا.

-أطلعني أحد الأصدقاء على المنزل وقال لي إنّكم لستم من البلد وقد جئتم من مكانٍ بعيد، وهناك طفلٌ اسمه جويل، أهذا صحيح؟

-صحيح.

-أهو هنا؟

-لا هذا بابتيست، أمّا جويل فهو مع أبي في المقلع.

-كم عددكم جميعًا؟

-أربعة.

-لا بأس!

-ما الذي يمكن لهذا أن يفعله لك؟ قالت وهي مطمئنّة دون أن تعرف السبب وضاحكةً بضحكةٍ رائعة.

-هذا ليس هدفي، لا بأس! قال الرجل وهو يهزّ رأسه ويتحدّث إلى نفسه.

-هيا اذهب في طريقك الآن. قال الصغيرة وهي تعود إلى عملها. عليّ نشر ما تبقّى من الغسيل، وبحال رأوني أتسلّى فسأتعرّض للتوبيخ.

كابد البنّاء من هذا الردّ كما لو أنّه من خيبة أملٍ شخصيّة: «نحن أربعة». هذا ما سيعيده إلى المديرة هناك، إلى مضيفة مقهى لوفالوا المتحمّسة والجميلة والعاطفيّة! رآها في مخيّلته وهي تبكي وتقول: «لماذا أتيت؟ لم يكن لديّ أملٌ قبل أن أراك، وها أنت تنتزعه منّي». كانت روحه ساذجة وشديدة الحساسيّة، ونظر إلى الطفلة التي ما تزال تنظرُ إليه بريبة وتنشر

المزيد من قطع الغسيل فوق أزهار الملفوف لأنّه لم يعد هناك مكان على الحبل. وكان الشبه كبيرًا جدًا بين وجه هذه الصغيرة ووجه المرأة الأخرى التي تذكّرها، لدرجة أنّه لم يرفع العصا ولا صرّة الملابس التي انحنى نحوها لأجل المغادرة.

-عليك ألا تغضبي يا صغيرتي نويمي، وألا تعتقدي أنّني مثل أولئك الطوّافين الذين يتحدّثون مع الجميع من فوق الأسيجة وليس لديهم قصصًا جميلة من حياتهم على الدوام. أما من هذا البلد، أنا من جانتيو، ومعروفٌ هنا لكوني من عائلةٍ من الأناس الطيبين... إذا كنتُ قد تحدّثت إليك... تعالي إذًا، ماذا أقول لك؟

خطت ثلاث خطواتٍ وهي ما تزال تحملُ قطعةً من القماش بين يديها المتدلّيتين.

-ذاك الذي رأيته في باريس شخصٌ أعتقد أنّه من عائلتك...

-لا أعرف أحدًا. قالت نويمي. أهو رجل؟

-لا.

وكانت قد نهضت على نعليها لترى المسافر بشكل أفضل، وكان فمها نصف مفتوحٍ وأنفها مبيضٌّ بكامله جراء الانفعال. فكرّ العابر «إنّها تعرف شيئًا!» ورأى أنّ يديها تركتا قطعة القماش تقع. وعلى الجهة المقابلة من السياج وقريبةً جدًا منه، سألت الصغيرة بلكنةٍ عاطفيّة:

-إذاً هي على قيد الحياة؟

عندها قال الرجلُ وقد أدرك أنّ للحزن أو للفرح تأثيرٌ قويّ على الصغيرة:

-لنرى، قبل أن أخبرك بمن يكون، ينبغي أن أعرف عدّة أمور. لا تبتعدي هكذا... يداك لا ترتجفا... قلت أربعة أبناء؟

-أجل، بابتيست وهو الأخير، ويكبره على التوالي جويل، لوسيين وأنا، وبالتالي فالمجموع أربعة.

-أكثر ممّا قيل لي. هل أتيتم من بريتانيا؟

-أجل، وكان عمري أكثر من خمس سنوات. ما زلت أذكر: كنت أسير على قدمي، فيما الآخرون فوق عربة يد.

-هل والدتكم هنا؟

قطبت الصغيرة حاجبيها وتردّدت قبل أن تكشف عمّا تخفيه بأعماق روحها، وتأكّدت مجدّدًا من أنّ وجه هذا العابر قد تأثّر بالفعل، فمن هو أمامها رجلٌ طيّب، منحنٍ للأمام وسريع الكلام، وامرأة وطفلٌ في آنٍ معًا.

-هنا والدة بابتيست يا سيّدي، لكنّها ليست أمّي، فمن الواضح أنّ أمّي سمحت ببيع ممتلكاتنا في بريتانيا ولم ترغب في العودة، فقد غادرت لإرضاع طفل رجلٍ ثريّ، ولم تُرَ بعد ذلك مطلقًا.

-ما اسمها؟

-دوناتيين.

-إذًا هي التي رأيتها! قال الرجل.

-أوه! ما الذي قلته منذ قليل؟ هل رأيتها؟

-أجل وقد تحدّثت إليها بنفسي.

وبدأت تبكي بصمتٍ رافعةً عينيها، وتدفقت الدموع ونظرت من فوق الرجل نحو الأشجار، حيث لا بدّ أنّ صورة تلك التي اسمها دوناتيين قد تجلّت... ومن ثمّ أخفضت جفنيها وأخذت بالبكاء، وظلّت تبتسم للمشهد.

-قل لي يا سيّدي، هل تحدّثت عنّي؟

-عن الجميع.

-هي لم تنسنا كما قالوا إذًا؟ كنت أعرف ذلك جيّدًا... كنتُ متأكّدةً من ذلك... أحببتها... هل باتت كبيرة في السن؟

-أبدًا! ما زالت امرأة جميلة. وقال لنفسه: «الكلّ سيكون، أنتم شبابها المتجدّد».

واكتفى بالقول:

-ما الذي تريدينه؟ حينما أخبرتها بوجود جويل في البلد أرادت معرفة المزيد، وأخبرتها عن كلّ ما أعرفه فصاحت: «أنا والدتهم...» ربّما ليس لشيءٍ كبير، لإذن سيمنح لها، فإنّها ستترك كلّ شيءٍ في باريس وتعود...

-آه! بحق الله! لا، لا تدعها تأتي! قالت الصغيرة بخوف. أوصل لها تحيتي أنا نويمي، وقل لها إنّني أراها في أحلامي، وأنّني أذكرها في صلاتي – الآخران صغيران جداً أليس كذلك – لكن لا تدعها تعود! ... أنا أتمنى ذلك... لكن هم لا يريدون أبدًا!

-من؟

فأجابت بشكلٍ متقدٍ ومأساويّ كدوناتيين:

-والدي وزوجته الثانية. حينما يتحدّثان عنها يتمنّيان لها الموت، أو إنّهما يؤكّدان أنّها ماتت ويتّفقان على قول كلّ سيئٍ حولها، وأنا التي لا أودّ مناداة الثانية «ماما» يصنعان مشاهد لأجلي، وهي تودّ حقّاً أن تضربني لو كان باستطاعتها... ليسا جيدين تجاهي كلّ يوم، ويمكنك أن تخبر والدتي دوناتيين بذلك... أوه! لا أودّ سوى التفكير بها يا سيّدي... لكنّني لن أقول إنّني على علمٍ بأنّها على قيد الحياة. لا، أقسم أنّني لن أقول. قل لي أين تسكن؟ ...

وكتب العنوان في مفكّرةٍ رخوةٍ ومهترئةٍ ومُثبتةٍ بشريطٍ مطاطي، ومزّق الصفحة وسلّمها للطفلة. ونظرت نويمي مرة أخرى نحو القرية وقالت:

-ها هي والدة بابتيست عائدة! ها هي ذي! لن تستطيع رؤيتها، لكنّني أنا التي تعرف الطريق متأكّدة أنّها هي... فقد ذهبت مع لوسيين لشراء الفحم من المدينة... لا تبقَ هنا... منذ أن ضاجعها أبي أمسى قاسيًا! هو أيضًا سيعود من المحجر في الوقت الحاضر... ارحل، فسأضرب وربّما أنت أيضًا...

-أوه أنا! إنّني هادئ! قال الرجل.

وأشار إلى العصا على الأرض، انحنى ووضع صرّة الثياب على ظهره ثم رفع قبعته وقال:

-سأقول لها إنّني رأيت نويمي، أليس كذلك؟

تأثّرت الطفلة بشدّةٍ لدرجة أنّ الدموع انهمرت منها بغزارةٍ وخنقتها، فأومأت وكأنّها تقول: «أجل ستقول ذلك»، ومن ثمّ أشارت باتّجاه القرية وشعرت أنّها مخطئة، وانحنت لتنتهي من الغسيل داخل المغسلة.

ابتعد البنّاء، وكانت قد استدارت بالفعل لرؤيته وهو يتسلّق التلّ، حيث على قمّته صخور الحجر الجيري والمحجر الذي يعمل فيه لوارن. تبعت بكلّ

روحها الشابّة ذاك الرسول الذي جلب لها السر والذي رأى أمّها الحقيقيّة. لقد نسيت أخذ عربة اليد وإعادتها تحت السقيفة بعد أن انتهت من العمل. صعد الرجلُ وهو يتدحرج فوق التراب الباهت، وكانت الريح تقشعرّ لها الأبدان والشمس مائلة نحو المغيب، وأظلم السهل الكبير والحزين تحت غطاء الغيوم الهاربة وفقد أبعاده...

-ما الذي تفعلينه هنا أيّتها الكسولة؟ ما الذي تشاهدينه؟

جفُلت نويمي وسارعت لرفع عربة اليد والعودة إلى المنزل، وتابع الصوت قائلًا:

-سيوبّخك والدك! سيجعلك ترقصين! لمدّة ساعتين منذ أن غادرت ولم يجفّ غسيلك مع ريحٍ كهذه!

كانت الطفلة قد أصبحت بالفعل تحت السقيفة ولم تعد تستمع، والريح ساعدتها على ذلك. هذه الريح رفعت القرميد وبدأت تصفر بين أغصان أشجار الحور ذات الرؤوس المقطوعة التي تحيط بالمنزل، غير أنّ نويمي لم تستطع الهروب. كانت امرأة تنعطف في الدرب وتتخذ الطريق الرئيسي، وبعد الانعطاف مباشرةً فتحت البوابة ذات القضبان التي تقسم السياج النباتي إلى قسمين. هذه المرأة التي ترافقها فتاةٌ في الحادية عشرة من عمرها، والأخيرة نحيلة وشقراء وبارزة الوركين، كانت ذات جسمٍ قويّ وكتفين عريضين وبعينين صفراوين ثاقبتين تبحثان دائمًا عن شجار، وذراعاها منتهيان بيدين ضخمتين قادرتين على مصارعة يدي رجلٍ قوي. إنّها المرأة نفسها التي عاش معها لوارن، نفسها التي تدعى «بالسيّدة لوارن» في البلد، نفسها التي التقى بها صدفةً خلال الأسابيع الأولى من ترحاله، والتي اقتربت منه في إحدى الليالي حينما كان الطوّاف الفقير على جانب الطريق يحاول إشعال النار

وطهي العشاء للأطفال الباكين. نويمي تتذكّرها جيّدًا، وهي الشاهدة الوحيدة المزعجة على الماضي، والوحيدة التي استطاعت القول: «كان لديَ أمٌ أخرى في بريتانيا».

-أيّتها الكسولة! تابعت المرأة حينما دخلت نويمي الغرفة الأولى من المنزل. هل ستبدئين في صنع الحساء الآن؟ القدر ليس على النار والبطاطا غير مقشّرة! ما الذي كنتِ تفعلينه إذًا؟ ...

-قمت بنشر الغسيل أوّلاً. قالت نويمي.

-أوّلاً... أوّلاً سيعود الأب إلى المنزل، وسأخبره أنّك لا تصلحين لشيء!

كانت لوسيان من خلفها تحمل قدرًا من الفحم داخل كيسٍ وقبّعاتٍ مكويّةٍ داخل سلة، وتبعها بابتيست الذي كان يقشر خيوطًا من الخوص بقطعةٍ من الزجاج، وقالت:

-ها هو الفحم يا أمي، ولكن دعوا نويمي تعمل! إنّه ليس دوري.

أشارت السيّدة لوارن إلى الملحق حيث يوضع مخزون البطاطا وصاحت:

-هيا! إلى تحضير الحساء أيّتها الكسولة!

شعرت نويمي أنّها جريحة أكثر من المعتاد، وساورها يقينٌ بأنّ والدتها الحقيقيّة لن تتكلّم أو تتصرّف كهذه المرأة. وبدلاً من أن تطيعها خلعت مئزرها وقالت:

-تستطيعين تحضيره بنفسك! سأقوم بتجفيف نفسي لأنّني مبلولة تمامًا، وقد عملت بجدّ أكثر منك!

فاحمرّت الأخرى غضباً وقالت:

-آه! أيتها البذرة العاطلة، ألن تطيعي؟ آه! أتعصين؟ آه! أتتفوّهين بالكلام في وجهي؟

وانحنت وانتزعت قبقابها من الحزام الجلديّ ورمته بعنفٍ نحو نويمي، فلامس الصغيرة من نعله الخشبي واصطدم بالجدار في قاع الغرفة وسقط على الأرض.

-هذا لكي تتعلّمي! صاحت السيّدة لوارن.

وظلّت هذه الكلمات ترنّ في الغرفة، مختلطةً مع صرخات الخوف التي أطلقها بابتيست، حينما أغلقت قامةٌ طويلةٌ ونحيلة فتحة الباب تقريبًا.

-ماذا هناك أيضًا؟ سأل صوتُ رجلٍ خفيضٌ ومكتوم.

إنّه لوارن.

أدّى الحزن والهزال جراء العمل والجو، وانعدام الثقة بالنفس وبالناس، إلى نحت تمثال الفقر هذا في الجسد الرشيق للبريتاني المهاجر. بدا وجهه متطاولاً بشكلٍ طبيعي، وفكّه يسقط ويتدلّى لأسفل أكثر فأكثر فاتحًا شفتيه المتشقّقتين نصف فتحةٍ كأشداق أسماك الرنكة التي يشنّجها الموت والنار. لا شكّ أن شفتيهِ اعتادتا على الشكوى، وحافظ الجزء السفليّ من الوجه على تعابير وإيماءات أولئك الذين يطلبون العون: ذقنٌ حليقة، خدّانٍ مسطّحان، أنفٌ مرتخي الجلد، ثقوبٌ كبيرةٌ من السواد أسفل الحاجبين، تجاويف ناتجةٍ عن التعب والدموع، وفي القعر عينان بالكاد يمكن رؤيتهما والتي بدت بنيّة اللون بسبب عمق السواد، لكنّهما في ضوء النهار، وحينما يمكن رؤيتهما صدفةً بوضوح، تبدوان العلامة الوحيدة المضيئة لذلك الوجه الكئيب، عينان

بلون الرماديّ لبحرٍ شبه أزرق، وهو اللون الذي يكتسبه البحر بالدخول نحو موانئ الصيّادين، ضجرٍ ومحزّزٍ بالرغوة. أمّا شعر جان لوارن فكان شبه طويل ومقصوص عند ياقة سترته، وفي الهواء الطلق يتغيّر لونه ويحمر كالجلد، ويمشي منحنيًا نحو الأمام وصدره غائر. لا أحد أكثر شبابًا منه. لكنّه كان ممسكًا بيد صبيّ جميلٍ متورّد الوجه يبلغ الثامنة من عمره، ألا وهو جويل الذي عاد منذ فترةٍ طويلةٍ من تلك المزرعة، تلك التي تُرك فيها وجرى إرضاعه أثناء السفر من بريتانيا، والذي بات الآن يقضي النهار في المحجر الكائن على قمّة التلّ برفقة والده.

طوال اليوم ومثل كلّ يوم، يعمل لوارن فوق ذلك التلّ الواقع على مسافةٍ ليست بالبعيدة عن المنزل، وهو تلّ أجرد نادرًا ما تبرز منه باقاتٌ قليلةٌ من أشجار السنديان سيئة التغذية، والتي تلامس أغصانها الأرض وعلى رأس كلّ واحدةٍ منها عِرفٌ من الحصى السمراء، أشبه بقلعةٍ محصّنة، التي تثيرها الطريق. ثمّة مقلعٌ هناك، حيث أنّ لوارن وقبل سبع سنواتٍ، وبعد أنْ ظلّ متشرّداً في كافّة أنحاء فرنسا وهو يبحث عن عمل، عملَ به كأجير أسبوعي، وهو ما زال مستمرّاً لغاية اليوم. وأمام عدم قدرته على تعلّم مهنةٍ صعبةٍ، وكعاملٍ محكومٍ عليه بمهامٍ ليس للعقل دورٌ بها، عمل في قطع الحجارة داخل محجرٍ في الهواء الطلق محفورًا في هذا الجرف. وبضربات المعول ببطء، تحت حرارة الشمس وبرودة الرياح المتحرّكة الآتية لملاقاة التلّ كما تلاقي السفينة الجزيرة، يهجمُ جان لوارن على الرخام الأحمر والأصفر الذي يبدو غلافه الخارجيّ المرئي من الطريق وكأنّه شرائح من اللحم. هذا الحجر يجري استخدامه من قبل البنّائين في كافّة أنحاء البلاد. هذه المهنة كانت صعبة ومتواضعة الأرباح، ولحسن الحظّ فإنّ العاطلين عن العمل قلّة. وحينما ينزل لوارن نحو البلدة برفقة الثلاثين عاملًا الذين يشتغلون في المحجر نفسه، لا

شيء يميّزه عن بقيّة رفاقه باستثناء خصره الزاوي ورأسه الصغير المتحرّك والنافر كرأس طيور الشاطئ. ظلّت عينا البريتاني قلقةً في بلاد التلال الهادئة التي خلّفتها العاصفة في مكانها، ولا يمكنها الاطمئنان لأيّ شيء: لا للمحاصيل التي لا تشبه تلك المحصودة في بلدة بلويغ، ولا للبرك التي تبدو ملتمعةً هنا وهناك على الهضبة والتي ذكّرتها بالبحر، ولا لمنازل البلدة المجاورة أو البلدات الأكثر قربًا لأنّ عدّة سنواتٍ من الإقامة بينها لم تكن كافية لتبنّيها، ولم يكن لوارن سوى عامل عابر، كما كان في يومه الأوّل، يمكن تحمّله، وأجنبي لا يوثَقُ به. ما من رابطٍ جعله يتعلّق بالمكان أكثر من أيّ مكان آخر ولا شيء تعلّق به.

من المؤكّد أنّ الحزن أقام في داره لفترةٍ طويلة، لكنّ هذا أصبح أكثر وضوحًا من المعتاد حينما عاد إلى منزله، في هذا المساء من مارس، ووجدهم جميعًا يبكون ويصيحون بغضب.

-هيا! قال وهو يرمش بعينيه ليرى بابتيست في الظلام وهو يلمّ قبقاب والدته. إنّها الجوقة مرّةً أخرى!

-إنّها لا تعملُ حين أتركها في المنزل! صاحت المرأة... إنّها من البنات اللواتي لا أحبّهن، فتاةٌ شابّة مستمعة للأغاني، فتاة لن تجني منها فائدة يا لوارن! لم تعرف بعد كيفيّة تحضير الحساء...

ولمدة خمس دقائق ظلّ الصوت العالي القاسي يدوي تحت أشعة الغرفة الدخانية، بينما كان الأطفال الأربعة ولوارن ينتظرون انتهاء التحقير التي كانت المرأة توجهه إلى الابنة الكبرى. وحين أنهت كلامها قال لوارن:

-قولي لماما إنّني آسفة! وبما أنّه لا يوجد حساء فاذهبا يا بنات وأشعلا النار،

سننتظر.

فأومأت نويمي بعدم الموافقة.

-قولي لها إنّك آسفة! كرّر لوارن.

وسادت لحظة أخرى من الصمت، ومباشرةً بعدها بسرعةٍ صاحت نويمي:

-هذه ليست أمّي! إنّها تكرهني! اسمُ أمّي هو دوناتيين!

-ما الذي تقولينه؟

وأوقف لوارن بذراعه القويّة تلك المرأة السليطة التي اندفعت نحو الأمام لتردّ بالضربات، والتي استدارت نحو لوارن وشتمته حينما رأت نفسها ممنوعة من الضرب.

-سمحت بإهانتي يا لوارن ودافعت عن ابنتك. لقد سئمت من حياتك البائسة، من هذا البلد القذر حيث لا شيء لدينا سوى البؤس والازدراء! من هنا ينظرُ إليك فقط؟ إنّك لا تقول شيئًا ولا تجيب عن شيء، ولا تخطو خطوة للأمام، أنت كلبٌ لدى الجميع! لقد اكتفيت، سأرحل وسأترك متجرك والحثالة التي تضعها فيه!

-ارحلي إذًا!

فردّت بهدوءٍ شديدٍ ولنفسها وحدها، وبدلًا من أن ترحل أشعلت عود ثقابٍ وقرّبته من حزمةٍ من الأشواك، وبدا الجميع مرتاحين لرؤية اضطرام الشعلة وسواد الصمت، الجميع ما عدا لوارن الذي لم يعد يجرؤ على التحدّث إلى نويمي خوفًا من إثارة غضب المرأة، والذي جذب جويل ومسّد بيده تجاعيد شعره البنيّ مستمتعًا بهذه الرقّة كما لو أنّه يداعب الماضي. لم تتغيّر ملامحه،

وظلّت يده النافرة عظامها والبطيئة حركتها تمسّد الشعر الذي يُلاحظ في أشعّة الشمس الداكنة والمحاط بإطارٍ ذهبيّ جرّاء اللهب. أمّا نويمي الجاثمة عند النافذة فقد تظاهرت بتأمّل الليل ورؤوس أشجار الحور القريبة، وكذلك الغيوم التي ما تزال تتحرّكُ على شكلّ مفرشِ طاولةٍ ملطّخةٍ بعض الشيء بنورٍ ساطعٍ باتّجاه الغرب.

كان قلبُ لوارن مريضًا، إذ ظلّ يفكّر في دوناتيين.

ولكنّه لم يعد ذاك الزوج الشاب العاطفيّ الذي بكى كثيرًا حينما غادرت دوناتيين مزرعة روس غرينيون وريف بلويغ لتعمل كمرضعةٍ في باريس، وكان بعيدًا عن ذاك الذي ظلّ يقلق بشكل أسبوعيّ على تلك البريتانيّة الصغيرة وينتعش ببعض الأخبار التي لم تأتِ، بعيدًا عن ذاك الذي طهّر المستنقع ليكسب القليل الإضافيّ ولجعل الدار أكثر احتفاليّةً وإمتاعًا لتلك التي ستعود، بعيدًا عن ذاك المزارع الملفوظ من الأرض والمجرّد من أثاثه الذي عُرِض للبيع من أجل تعويض الدائن، عن ذاك الطوّاف الذي لا عمل له ولا أبرشيّة له ولا مشروع، ولا حتى فكرة أخرى غير الجوع، والذي شوهد ذات صباح سالكًا طريق فونديه، وهو الطريق الذي يخرج المرء عبره من بريتانيا وغالبًا لا يعود. لمدّةٍ طويلةٍ حلّ الغضب مكان الحب، ولم يتوقّف لوارن عن التفكير بها ولكن لأجل اتّهامها ليس أكثر، إذ ظلّ يقول: «لأجلها فعلتُ كلّ شيء! امرأةٌ سيّئة! أمّ سيئة!» ويلومها كونها هي من أفلسته وهجّرته وقادته نحو هذه الحياة البائسة وهذا الإثم الذي يعيشه. ولأنّ الإيمان لم يمت لدى ابن بريتانيا هذا، وعلى الرغم من تناقص هذا الشعور جرّاء طول المدّة، لكنّه ما زال شاعراً بالحاجة إلى الاعتذار لعينيه، وقد فعل ذلك من خلال توجيه الاتّهام إلى دوناتيين الغائبة، الخائنة والحقيرة... وأثناء تفكيره المظلم حينما

يتذكّر ذلك، ينتهي الأمر باختلاط ألمه وضعفه معًا، فيما كانت أكثر عبارةٍ حضورًا لديه: «لم يحالفني الحظ!».

ومع ذلك، ونظرًا لعدم وجود شيءٍ مخفيّ عن أفكارنا الحقيقيّة حتى علينا نحن، كان لوارن سعيدًا برؤية صورة دوناتيين من خلال نويمي... فبخصرها النحيل، بملامحها الشبيهة بالدمى المصنوعة من البورسلين وكذلك بنبرة صوتها، ذكّرته نويمي كثيرًا بدوناتيين. لكنّ القلب لم يكن خفيفًا كقلب الأم...

وفي هذا المساء حينما ألقي اسمها فجأةً في منزل المنفى، ظلّ لوارن صامتًا أكثر من المعتاد. وبعد تناول العشاء، وبينما كانت المرأة تدفع الجمر بعيدًا عن الموقد وتوبّخ جويل وبابتيست اللذين لا ينامان بسهولةٍ في الغرفة المجاورة، وبعد أن خرجت لتغلق قفصي الدجاج والأرانب، حدّق بفخرٍ لا يمكن وصفه لأحدٍ بنويمي ولوسيين اللتين كانتا تجلبان الغسيل الجافّ عن الحبال في الحديقة وتقومان بطيّ الملاءات والمناشف والقمصان قطعةً تلو أخرى على الكتف اليسرى. أظلم الليل في الخارج، وكانت الغرفة مضاءةً من الداخل وبعيدًا عن المدخل بمصباحٍ صغيرٍ يدخّن كثيرًا، وفي هذا الضوء الخافت، وحين دخلت نويمي محمّلة بالغسيل ومشعّثة بعض الشيء وضاحكةً لأنّ سنواتها الأربعة عشر بحاجةٍ إلى الفرح الذي تخلقه حيث هو غير موجود، بدا أنّ لدى لوارن رؤية واضحة لتلك التي سمع اسمها للتوّ مرّةً أخرى. كانت قوّة ذاكرته لدرجة أنّه تأمّل للحظةٍ يديه، يديه المسكينتين اللتين عانتا كثيرًا في الماضي بعملها في المستنقع لأجل حبّه لدوناتيين، وقال:

-لذلك ستلاحقني على الدوام!

-ما الذي قلته؟ سألت الطفلة التي توقّفت عن طيّ الملاءة.

وبدت شديدة الشبه بها، بانحناءتها وعينيها الألقتين، ما دفع لوارن للبكاء.

أرادت أن تخبره بالسرّ.

لكنّها لم تجرؤ على ذلك...

هدهد الليل البراءة والخطايا والغضب والضغائن، وانتصر التعب على هؤلاء المساكين الذين يعانون من المرأة نفسها واحدًا تلو الآخر.

كانت نويمي آخر من غفت في الغرفة الداخليّة فوق السرير الخشبي الأبيض، الضيّق والمنخفض للغاية، حيث تنام مع شقيقتها لوسيين. وتحت وسادتها وضعت الورقة التي كُتِب عليها عنوان والدتها، تلك الأمّ البعيدة التي ما زالت تلمحها كلّما تذكّرت طفولتها المبكرة. وبين الفينة والأخرى تمتمت قائلة: «ظننتُ أنّك ميّتةٌ ماما... إنّك على قيد الحياة! ... أودّ رؤيتك من جديد! أوه! رؤيتك كثيرًا! ... ولكن لا ينبغي عليك فعل ذلك... فستقتلك المرأة الأخرى... إنّها شرّيرة للغاية! ... ماما دوناتيين، لو أمكنني إحضارك إلى هنا، لدقيقةٍ واحدةٍ فقط، عند حافّة سريري وأقبلك! ... ولن يسمعوا أيّ شيء!»

أنصتت للريح التي تدفّقت من الهضبة إلى السهل، والتي عملت وقامت بواجبها الغامض في الهياكل والأوراق، وفي الحظيرة التي انسلّت لقلبها ونظّفت أرضيتها...

تذكرت الرجل الذي اقترب من السياج خلال ما بعد الظهر وكررت الكلمات التي قالها، بل تلت الحديث كاملًا كما كان تفعل خلال تعليمها المسيحي ما بين الأسئلة والأجوبة. أين هو الآن؟ من المؤكد أنه استقل القطار إلى باريس، والآن قد بات بعيدًا ويحمل سرًا أنه رأى نويمي...

XII

عاد الصيف

في الواقع عاد الرجل إلى باريس بأقصى سرعة دون أن يقدر على النوم إطلاقًا، وظلّ يفكّر فيما عليه فعله وهو مسترخٍ على المقعد في مقصورته الموجودة في الدرجة الثالثة. قلقةٌ ومضطربةٌ بقوّةٍ... عادت إليه صورة نويمي الصغيرة وهي تقف على الجانب الآخر من السياج، وقارنها بصورة دوناتيين للتأكّد بشكل أفضل: «إنّهما أمّ وابنتها، أجل بلا شك». وتساءل عن نتائج زيارته لشارع لوفالوا-بيرّيه، فبحال ذهب إلى هناك فستنتجه هذه الأم، تلك التي رآها مرتعشةً ومتحمّسة للغاية، إلى لا كروز على جناح السرعة، ولا شيء سيمنعها. وستحدثُ مشاهد مروّعة في منزل عامل المحجر كتلك التي يقرأ عنها في الجريدة بشكل يومي، أي «دراما الغيرة». كانت الصغيرة على حق: لا ينبغي على دوناتيين العودة فهذا أكثر أمانًا، إذًا أليست أفضل طريقةٍ لنزع فتيل الصراع هو البقاء صامتًا؟ على أيّ حالٍ لا شيء يدعو للعجلة. ثمّ ألم تكن الأم على يقينٍ بأنّ أطفالها أحياء؟ وبما أنها لا تستطيع العودة إلى زوجها وإليهم، ألن يكون من الأفضل ترك الأمر عند هذا الحد؟ في النهاية استنتج قائلًا لنفسه: «حسناً لن أخاطر أبدًا ولن أذهب، فأنا غير مدينٍ بشيءٍ لهذه المرأة. سأوفّر عليها بعض المشاكل ولن أذهب».

لقد كان رجلًا حكيمًا أسفَ بالفعل لظهوره في بداية النزاع، فاستأنف عمله ونسي دوناتيين.

وعاد الصيف الكبير للظهور في كافّة أنحاء فرنسا، ودفّأت شمسه حيّ العمّال حيث لم تعد دوناتيين تتوقّع أيّ شيءٍ من الحياة وتحاول إقناع نفسها

بأنّ أطفالها لم يرَهم ذاك الزبون العابر ذات يوم. وقالت لنفسها: «خدعني ذاك الذي تحدّث إليّ، أو التقى بطفلٍ آخر غير طفلي يدعى جويل، ولهذا السبب لم يعد إلى هنا». أدركت أنها ستبذل جهدًا من أجلهم لو عرفت أين يعيشون، وأخبرت نفسها أنه لم يعد هناك أي فرصةٍ لمعرفة أيّ شيءٍ الآن، وأنه محكوم عليها بالتقدم في العمر داخل هذا البؤس وهذا التعب من كلّ شيء.

كما دفَأت حقول روس غربنيون حيث لم يعد لاسم عائلة لوارن أيّ ذكرى، ودفَأ غابة بلويغ التي تحرّك أوراق أشجارها الضخمة. وتجيء نوارس ضائعة وتراها مفعمةً بالحياة وتذهب بها نحو البحر، جراء الأمواج والضجيج، وتتردّد قبل أن ترفرف بأجنحتها التي تقودها نحو الشاطئ.

وأيضًا دفَأت السهل حيث يعيش الفقراء الذين هاجروا من بريتانيا والتل حيث يقع المحجر، حيث يعمل لوارن في القمّة، وقدماه غارقتان في أنقاضٍ من الترابِ والحجارة، في الجزء السفلي من جدار من الصخور المستقيمة والعالية والصفراء الذي يهوي عليه بفأسه، فيرنّ الحديد قبالة الحائط ويرتدّ. كان الجو حارًا للغاية في هذا الحوض للصخري لدرجة أن الكلاب التي تبعتِ العمال ووجدت الأرض ساخنة قد ارتعشت أقدامها واتخذت الطريق السريع بحثًا عن الظل، فيما بقي الرجال لأجل القوت، وقد بدوا متباعدين ومتناهيي الصغر في سفح المنحدرات التي قطَعوها إلى قطع. ومن قلعتهم الحجرية يسيطرون على السهل كلّه، حيث يغدو الصمت عظيمًا جرّاء إحباط الأشياء والأشخاص. أمّا الريف فصامتٌ كما في الثلج، ويتدفّق اهتزاز ضربات حديد الفؤوس إلى المواضع المنخفضة بشكل رتيبٍ وحادٌ كأغنية الصرصار...

كانت الساعة الثالثة بعد الظهر حينما فتقت صرخةٌ مروّعة هذه الضوضاء الخفيفة لعمّال المحجر، والتفت الأشخاص المشتّتين أسفل التلّ في الحقول

وشاهدوا دخانًا يتصاعد من التراب كالذي يأتي من أرضٍ تُدرسُ فيها الحنطة. ومن ثمَ ظهر على جانب الطريق ستة عمّالٍ اجتازوا المحجر ونزلوا باتّجاه القرى، وأومأوا بإشاراتٍ وصاحوا بكلماتٍ ردّدها في الوقت نفسه اثنان أو ثلاثة راكضين في حالةٍ من الفوضى. وكانوا يحملون على نقالةٍ رجلًا غائبًا عن الوعي ومضرّجاً بالدماء.

كانوا يريدون المياه العذبة والملابس.

لم يأت أحد، فنزلوا. كان وجه الجريح مبيضّاً في الضوء كغبار الطبشور، ولحمايته قام أحد العمّال بتغطيته بورقتي سرخسٍ مقطوفتين من حافّة الحفرة واللتين كانتا تتأرجحان أثناء المشي. لا أحد يتكلّم. وشاهد عمّالُ المحجر رفاقُ الجريح المعتادون -وهم مجتمعون على قمّة التل- البائسَ وهو ينزل، وبكى الحمالون بوجوههم القاسية واختلطت الدموع بالعرق.

وحينما أمسوا أسفل المنحدر حيث يبدأ الظل، استداروا يمينًا وفتحوا بوّابةً صغيرةً ودخلوا مزرعة لوارن. وترنّحت صيحات الإناث من الزاويتين المتقابلتين، وزوجة لوارن بشتيمةٍ نابعةٍ من الألم، قد ألقتا بنفسهما أمام الحمّالين.

-ما الذي حلّ به؟ قولوا، أهو ميّت؟

-دعينا يا نويمي... اذهبي واسحبي البطّانيّة من سريره.

-إنّه لا يتكلّم أبدًا! لا يرى أبدًا! أوه! يا للدم المتدفّق منه! أبي! أبي!

دفعوا الفتاة الشابّة والمرأة التي كانت تصرخ: «هذا يحدث لنا فقط! يحدث فقط معنا!»، سار عمّال المحجر على طول رقعة الملفوف، وفي الغرفة الأولى بالقرب من النافذة أودعوا رفيقهم فوق السرير، وجعل انعكاس الستائر

المنسوجة من وجه لوارن أخضر اللون.

-لقد مات، أليس كذلك؟ سألت نويمي.

توقف عاملان عجوزان بقيا هناك، بلا حراكٍ وبدهشة وإرهاق، عن النظر إلى الرجل الجريح وقالا:

-لا أحد يعرف، ما زال يتنفّس بعض الشيء.

فأفسح شابٌ ذو وجهٍ شاحبٍ منمّشٍ وشاربين صغيرين مرفوعين المجال لتقترب نويمي، وقال بدوره:

-لديَ دراجةٌ ليست ببعيدةٍ آنسة نويمي، سأهرع نحو الطبيب، وبحال كان هناك أملٌ فسيقول ذلك. لن يستغرق الأمر أكثر من ثلاثة أرباع الساعة ولن ألهو في الطريق، لا تقلقي!

وبينما انحنت لتنصت إلى أنفاسه قال:

-هذا ما حدث: الحرارة الشديدة تصدّع الحجر أحيانًا، ولم يكن لدى لوارن متّسع من الوقت ليوازن وقفته، فسقط على رجليه من أعلى المحجر على علوَ يناهز الأربعة أمتار. أنا من رفعه، إذ كان على وشك أن يصبح تحت الأرض. لم يُطلق سوى صيحة واحدة وعيناه مفتوحتان، ومن ثمّ أغلقهما كما هو الحال الآن ولم يعد يتحرّك إلا مثلما يتحرّك الميّت، أليس كذلك يا ناس؟

وأومأ برأسه مستأذنًا ووضع قبّعته وخرج لإحضار الطبيب، فيما أكّد بقية العمّال القصة، وعضوا على شفاههم وهو يستمعون إلى نويمي ولوسيين والولدين الصغيرين وهم مجتمعون على عتبة الغرفة الخلفيّة ينادون أباهم.

وكرّروا الواحد تلو الآخر كتفسيرٍ وتعزية:

-إنها المهنة التي تريد ذلك... ليس الجميع محظوظًا. مسكينٌ يا لوارن!

وسرعان ما انسحبوا باستثناء الأكبر سنًا بينهم الذي ساعد المرأة على نزع ثياب لوارن اللابث بلا حراك، فتدفَّق الدم من عشرين موضعًا من البطن لأسفل الركبتين، من فجواتٍ كبيرةٍ ومضغٍ وقطعٍ ناتجةٍ عن انفجار اللحم المضغوط ومسحوقًا بشظايا من الحجارة والغبار وقطع القماش...

عند حلول الظلام توقفت عربةٌ على الطريق. استيقظ لوارن من نوبة إغمائه الطويلة وظلّ يئنّ دون انقطاعٍ لمدّة ساعتين.

سهرت عليه امرأتان ليس من بينهما تلك التي عاشت معه سبع سنين، بل كانتا امرأتين من القرية جاءتا على ضجيج البائس، فيما ظلّت الأخرى، وهي مذعورةٌ ومغتاظةٌ جراء الأنين المستمر، واقفةٌ في الخارج ترتقب الطبيب وتلفِّق حججًا لتقوم بها في القرية، ولا تظهر سوى عند الباب لتكرّر ويداها على صدغيها «لا أستطيع سماعه!» وتهرب على الفور.

كانت هي التي فتحت البوّابة وسبقت رجلًا ضخمًا قصير القامة وسريعًا لم يسبق له المجيء لهذا الجزء من البلاد، وكان قد تاه في الطريق.

-ليس من السهل إيجادكم أيّتها المرأة! يا لها من بلدٍ نائية! أين هو؟

-هناك، ألا تسمعه؟

دخل الطبيب الغرفة التي تضيئها ألسنة لهب الموقد لأن البطاطا تطهى على العشاء، وبما أنّ اللهب يتصاعد أعلى من خشب السرير حيث يرقد الجريح، رأى الطبيب وجهًا نحيلًا، حليق الذقنِ ومتشنّجًا، وعينين لامعتين غارقتين كالأقماع المضيئة تحدّقان بثباتٍ وقلق، فيما الشفتان المفتوحتان

والمشدودتان على شكلَ قوسٍ تتلفّظا بالأنين نفسه دون انقطاع «آه! آه!» وتتمدّدان كلّما اشتدّ الألم.

-دعونا نرى الساقين!

وبحركةٍ مفاجئةٍ رفع الطبيب البطانيات والأغطية ورماها باتّجاه الحائط، فانفجرَ عويلٌ من فم الجريح، فيما هرب الأطفال الأربعة المجتمعون في غرفة النوم الثانية، والمستندون على ركيزة الباب، نحو السقيفة وهم غير قادرين على تحمّل هذا الألم الذي ألوى أعصابهم.

بتسرّعٍ أزيلت البياضات الملطّخة بالدماء، وكذلك البلوزة المعارة من قبل أحد الأصدقاء للفّ الركبتين والملطّخة بكاملها بالدم الأسود. وحملت إحدى المرأتان شمعدانًا والأخرى حوضًا. كان رأس الطبيب وكتفاه المرتديان للقماش الأورلياني الأسود منحنيين نحو منتصف السرير، وقطرات من عرقه تتساقط على وجه لوارن الذي ضاعت حدقتيه في الجزء العلويّ من محجر العين، فيما ما زال أنين شفتيه غير المنقطع يملأ الغرفة ويتسرّب في الريف المظلم الحار والمتحسّس للحصاد.

كانت السيّدة لوارن تروح وتجيء وهي تسأل بصوتٍ خفيض:

-هل سيموت سيّدي الطبيب؟

وبعد نحو ساعةٍ جلس الأخير الذي لم ينتبه للسؤال باديَ الأمر، وأجاب كما لو سمعه لأوّل مرّة:

-لا، إنّني على يقينٍ بأنّه سيعيش، لكنّ ساقيه لن تعودا.

فزِعةً اقتربت المرأة وجسدها منحنٍ للأمام ومهانةً من الألم والمحنة حيث

يظهر عمق الوجود.

-ما الذي تقوله؟ ألا يمكن معالجتهما؟

-ليس تمامًا. أجاب الطبيب الذي نظر إلى يديه محرجًا ويبحث عن الحوض والصابون.

-اللعنة! من سيوفّر الزاد للأسرة الآن؟ أتعلم أنّ لديه أربعة أطفالٍ هنا؟ اللعنة! لو كنتَ لدى الأغنياء لأخرجته من المتاعب... ما الذي تريدني أن أفعل بعاجز؟

أمسك الطبيب بقطعة قماشٍ مدّتها إليه إحدى المرأتين الجارتين في البلدة ولم يجب بشيء، ومتجاهلًا تلك التي تحدّثت للتوّ أوصى بأشياء مختلفةٍ للآخرين ووعد بالعودة دون تحديد موعد، كما يفعلون عندما يتوقعون معاناة طويلةً وغير قابلة للشفاء.

وعبر الحديقة الصغيرة بمفرده، وفي آخر طرفها على طول الحاجز في الليل ظهرت هيئة نحيلة، وسألت نويمي:

-أصحيحٌ أنّه لن يستطيع العمل بعد الآن يا سيّدي؟

بدأ الرجل السمين الذي يمشي متثاقلًا فوق تراب الممرّ، المتعب جرّاء يومه والمرهق جرّاءِ الساعة التي قضاها لتوّه في المنزل، يشعرُ بالجوّ المعيب للغرفة ينزل من ملابسه ويتشتت في الليل، فاضطرب وتوقّف وهو جاهزٌ للإجابة بقسوة. ومن خلال الصوت والخيال تعرّف على المحيّا الجميل لنويمي التي وقفت على بياض الحاجز، بحيث بدا أمامه أحد أبناء هذا الجريح والمعاقب، فأجاب:

-أخشى أن تكوني من عليه العمل لأجله من الآن يا صغيرتي.

-فكّرت بذلك بالفعل. قال الصوت. قريبًا سأبلغ الرابعة عشر من عمري، سأبدأ بذلك وسأعطيه المال الذي سأكسبه، فأنا قويّة.

لاحظ الطبيب ذاك الشبح الضعيف.

-والصغار؟

-ستعتني بهما لوسيين، فللتوّ اتفقنا أنا وهي على كلّ شيء.

-غداً قرابة الظهيرة سأعود دون إيجاد أيّ عذر. قال الرجل وهو يفتح البوّابة.

وخطا بضع خطواتٍ على طول الطريق حيث كان حصانه المفكوك عمدًا يأكلَ العشب، وأومض فانوس العربة بين أشجار البلّوط المنتشرة على الطريق لخمس دقائق واختفى.

وفي صباح اليوم التالي، ولما نهضت نويمي بعد نومٍ سيئ، أدخلت رأسها بفتحة الباب الذي يربط بين الغرفتين، ومن جديدٍ تصاعد الأنين الذي هدأ لجزءٍ من الليل ولكنه ضعيفٌ ولاهثٌ ومرهق... ورأت الابنة أنّ أباها يطلب الشرب. كانت المرأتان قد عادتا إلى القرية حوالي الساعة الحادية عشرة مساءً ووعدتا بالعودة، إلا أنّهما لم تعودا بعد، فقفزت نويمي من سريرها وارتدت تنورةً قصيرة وأعطت الجريح القليل من الحليب ليشربه، بحيث أصابته الحقى وأغرقته. ربّما تعرّف على ابنته لكنّه لم يبتسم لها.

راودها شعورٌ بأنّ الخطر قد ازداد، ورغم ذلك كان من الضروريّ إشعال النار مثل كلّ صباحٍ وزيادة حرارة هذه الغرفة الساخنة تمامًا، وإنعاش لهب

الخشب في هذه العينين المريضتين.

خرجت نويمي للحصول على بعض الخُث(9) الذي سيحترق بدرجةٍ أقل، وكان هناك مخزون منه بالقرب من أقفاص الأرانب بالخارج. لا شك أن تلك المعروفة بالسيّدة لوارن كان لديها نفس الفكرة لأنها لم تكن في الغرفة.

وعادت الابنة مع كتلٍ من الخثّ دون أن تلتقي بالمرأة وأشعلت النار.

في هذه اللحظة كانت الديوك تصيح، والجارتان في القرية تدخلان، فسألن نويمي:

-أين والدتك يا صغيرتي؟

-ربما في القرية لأنني لم أرها أو أسمعها منذ أن استيقظت. أجابت نويمي.

-لا، لأنّ المتجر لم يفتح بعد. قالت إحدى الجارتين.

-إذًا ستذهب إلى المحجر لأنّ أدوات والدي هناك، ولن تترك شيئًا يضيع.

وعاد الطبيب وأعاد تضميد الجروح ومن ثمّ غادر المنزل بإيماءةٍ وكلمات غامضة لا تفيد، إلا أنّ السيّدة لوارن لم تظهر بعد ذلك، سواء لتناول وجبة الغداء أو عند الساعة الثانية أو الثالثة، فيما كان الأب يهذي ويهزل. عندها ذهب كلّ من لوسيين وجويل إلى المحجر ومن بعد إلى البلدة للحصول على أخبار، وأكّدا أن لا أحد رأى السيّدة لوارن.

قالت إحدى المرأتين اللتين كانتا ترعيان المريض، تلك السمينة ذات السوالف:

-ربّما انهارت.

-أبدًا. قالت الأخرى. حينما علمت أنّه مريضٌ بشدّةٍ بدت ضائعة تمامًا، ورأيت بوضوحٍ أنّها لا تفكّر به بل بنفسها... لا تقلقي بشأن ذلك صغيرتي نويمي، لكنّني أعتقد أنّها لن تعود.

-لا تقولا ذلك للصغار. قالت نويمي ببساطة.

ولم تبكِ مطلقًا، فيما بدت الأخرى مندهشة، ولكن مع حلول الليل بدأ القلق يساور الصغار، فجويل ولوسيين اللذان يعتقدان أنّهما ابناها سألا عنها والدموع في أعينهما: «أين هي؟»، ورآهما بابتيست يبكيان وركض معهما حول المنزل صارخًا: «أين أنت ماما؟ أين أنت؟» وطالما بقي الصغار مستيقظين ظلّوا يعانون من الحزن نفسه الذي يشعرُ به طفلٌ في الحادية عشرة أو الثامنة أو السادسة.

في تلك الليلة كانت نويمي هي الساهرة على والدها من منتصف الليل حتى الفجر، وشعرت بنفسها وحيدةً بين الظلال المليئة بالأحلام والمخاوف والنوايا، إذ غلّفتها جحافلها كما غلّفها عرقها ذات يومٍ في حقول الحنطة السوداء والجولق، كما لو أنّها خائفة أو متعاطفة أو مغرية لامرأةٍ أخرى مثلها تمثل طويلًا على المهد، وحتى هذا الرجل الهزيل المحترق من الحمّى والمهمل مرّتين، والذي كان لديه شبابٌ وأحلامٌ أيضًا أثناء ليالي السهر. نام نومًا متقطّعاً جرّاء القشعريرة والشكاوى ورؤى الحمّى، ونظرت إليه معتقدةً أنّه يتحدّث إليها في بعض الأحيان، وأدركت على الفور أنّه يهذي، وحينما لا تنظرُ إليه تفكّر في الغد، وحين تنظرُ إليه تفكّر في طفولتها وأشياء بعيدة. ربّما وجدا نفسيهما في هذه المسافات البعيدة كمسافرين اتّبعا الذكرى نفسها دون رؤيتها ودون التأكّد ممّا يجاورها: هناك كان الأوّل يهذي، فيما الأخرى تفكّر ورأسها الصغير مستند على يديها والشمعة بينها وبين أبيها، أحيانًا تتفوّه

ببضعِ كلماتٍ لكسر الوحدة الهائلة وأنين الريح الحائمة حول المنزل والذي شجّعها الصمت. لم تعد تتذكّر وجه الأب المسكين عندما كان شابًا، لكنّها تذكّرت المنزل الكائن على قمّة التل وكم كان مشرقًا في كلّ مكان، وكذلك الظلال بداخله، والبقرة التي تبرز وجهها الجميل عند فتح الباب بداخل الغرفة، وأيضًا مهد جويل الذي كانت تمرجحه في صغرها من خلال خيط.

جمعت هذه الصور وبعض الصور الأخرى التي شكّلت من أجلها السعادة الماضية، وتساءلت عمّا إذا كان الأب لا يملك نفس الذكريات السعيدة عن ذاك الزمن، ولم يراودها أدنى شك في أنّ الأمر كذلك. بدا أنّه نائمٌ لكنّه كان يتألّم، عندها مطّت شفتيها بشكل أكبر من المعتاد كما لو أرادت إرسال رسالةٍ إلى هذه الروح الحبيسة وراء قناعها المغلق، وفي الغرفة الصامتة صاحت بوضوحٍ وبلا صوتٍ تقريبًا:

-دوناتيين!

وانتظرت: لم يستقبل الوجه المحموم أيّة حيويّة ولا أيّة فرحةٍ، ولا حتى أيّ ألمٍ من تلك الكلمة غير العاديّة.

مرّةً أخرى ارتعش اسم الأم التي أحبّتها، والمرأة التي أحبّها، في جوف الليل، وتحرّكت جفون الجريح قليلًا بما يكفي كي تحصل نويمي على انطباع نظرة وإجابةٍ من الروح الحائرة والمريضة. ظنّت أن النظرة مليئة بالتوبيخ، وأنّ الشفاه ستتحرّك في اللحظة التالية وتقول: «اخرسي! لا تنطقي باسم ألمي الأعظم!».

ومن ثمّ مرّة أخرى كان الاستيعاب الكامل للكائن في المعاناة، والعينين المغمضتين والخدّين المجوّفين والشاحبين عند أطراف الفم المتجهّم.

واصلت نويمي التفكير، وفي الفجر الباكر حين هبط القليل من الضوء كالصقيع على فتحات المصاريع، اقتربت من النافذة التي اخترقت جوانب أشجار الحور والحقول وانحنت فوق العتبة الخشبية أمامها، وأدارتها للخلف لئلا يكتشف الأب السر.

أرادت أن تكتب.

وليس بسبب العثور على الكلمات بل لإنشائها، كتبت ابنة لوارن الكبرى ببطءٍ إلى «السيّدة دوناتيين» ووضعت العنوان الذي أعطاها العابر إيّاه.

انتظرت حتّى بزوغ الصباح، وبعد أن رأت بائع البيض المارّ سلّمته الرسالة التي سيضعها داخل صندوق المحطّة هناك على الهضبة، فأوقف البائع حصانه الهزيل الذي شرع في الهرولة وقال:

-سيكون ذلك يا صغيرتي.

وقرأ وتهجّأ العنوان الذي لم يسبب له أيّة دهشة، العنوان الكائن بعيدًا والذي كان قليل الأهميّة بالنسبة لأطفال عائلة لوارن، هؤلاء الصغار الذين لم تكن حديقتهم سوى قطعة أرضٍ موجودة على الطريق التي تسلكها العربة، غير أنّ نويمي احمرّت خجلًا وسلّمته الرسالة كما لو أنّها رسالة حب. لقد حبست كلّ آمالها وأحلامها في هذا الظرف الصغير الذي كتبت عليه بخطّ كبير: «إلى سيّدتي، السيّدة دوناتيين»، وحينما رأت عربة التاجر تبتعد ثمّ تختفي حاولت تخيّل ما سيحدث. كم ستستغرق الرسالة لتصل إلى وجهتها؟ بعض الوقت بلا شك. وعلى الرغم من أنّ نويمي لم تطأ قط أرضيّة قطار إلا أنّها رأته أثناء مروره، وتعلم أن جميع القطارات تتجه نحو باريس بدخانها الأبيض المستلقي على ظهرها، وبسرعة، بسرعةٍ كبيرة... أين ستكون الأم؟

في أيِّ منزلٍ، ذاك الذي تخيلته نويمي شبيهًا بذلك الموجود في القرية؟ ... ستكون دوناتيين واقفة على عتبةٍ من الطوب الموضوع على الحافّة وتنسجُ مثل نساء القرية، وستفتح الرسالة وتقول: «إنّها من ابنتي نويمي! ثمّة شرّ حدث لنا!» لكنّ الطفلة لم تعد تتخيّل ما سيحدث بعد ذلك، وشعرت بداخلها بالقلق والألم الذي أخذ بالنموّ مع مرور الساعات.

هذا الألم بات قويّاً للغاية في المساء لدرجة أنّها سئمت من المعاناة دون شكوى، وكانت متعبةً بشدّة من سماع معاناة الجريح، فتركت للحظةٍ المرأتين المحسنتين اللتين سهرتا على المريض وأشارت للوسيين وجويل. وبصوتٍ منخفضٍ قالت لوسيين من الباب:

-أين نذهب؟

وضعت الكبرى إصبعها على شفتيها، ومن خلفها عبر المزرعة كلّ من: لوسيين الشقراء المتورّدة والأقل أناقةً وحيويّة، وجويل ذو الشعر المجعّد كالطحالب والمرتدي لسروالٍ معلّقٍ بحزامٍ واحدٍ على كتفه. وعلى شكل طابورٍ ساروا نحو الطريق واتّجهوا يسارًا حيث ترتفع الأرض.

وتسلّق هؤلاء الثلاثة الصغار التل وفي قلوبهم الحزن، الكبيرة حزينة حزن امرأةٍ والباقيان بالقليل منه، ولم يتفوّهوا بأدنى كلمة. ومن على الأسيجة المغبرة أكل جويل توت العليق، وسمعَ صوت فؤوس العمّال لأنّ العمل مستمرٌّ منذ أمس دون المصاب، وباتت أشجار البلوط هزيلة ومتفرّقة على المنحدر حيث تظهر الصخور في كلّ مكانٍ، فيما الطريق صعبة التسلّق. عبرت نويمي المحجر من أوّله لآخره، وعلى نتوءاتٍ غير مرئيّةٍ من الجرف المشغول عليه يقف بعض قاطعي الحجارة وكأنّهم منغرسين فيه ويصيحون لها من بعيد:

-نويمي الصغيرة؟ ... هل بات الأب لوارن على ما يرام؟

فأومأت سلبًا، برأسها الصغير ذي الذقن المرفوعة قليلاً، بإباءٍ وتابعت طريقها دون توقّف، إذ لم تكن قادرةً على الكلام لأنّ قلبها يخاطبها كثيرًا. وعبرت الممرّ الضيّق حيث تغدو الطريق مجرّد حزّةٍ في الجدار الصخري، ومن بعدها يبدأ التلّ بالانحدار نحو الشمال مرتديًا الوزال والسراخس بكامله. لا أحد باستطاعته رؤيتها بعد الآن باستثناء لوسيين وجويل اللذين سألاها: «إلى أين الذهاب؟» وكانا متفاجئين، لكنّها ظلّت تتقدّم حتّى وصلت إلى نتوءٍ في الأرض موجودٍ على طرف الطريق وذي الإطلالة الواسعة على كافّة أنحاء البلد. من هنا رمت نويمي الحصى عدّة مرّات نحو الوادي الثاني العميق والممتلئ برؤوس الأشجار المرتعشة، وتمشّت مشاهدةً نحو اليسار التفلّت اللامتناهي للأراضي البور والقمح وبرسيم المروج والسماء المحلّقة فوقها. أمّا اليوم فعيناها مصوّبتان فقط نحو الهضبة المرتفعة لجهة الشمال بعد الوادي الضيّق، ونحو الطريق الضيّقة المرئيّة هناك، والملتوية والممسوحة والظاهرة مرّةً أخرى، وصولًا للمكان حيث تختلط الأشياء وتتطابق كذرّات الغبار: إنّها الطريق الرئيسيّة التي تبدأ من المحطّة غير المرئيّة المبنيّة داخل أرضٍ قاحلة، الطريق التي يسلكها عددٌ قليلٌ من المسافرين ذوي الأعمال في المنطقة. انضمّ الولدان الأصغر سنًّا إلى نويمي على التلّ المرتفع، وكان الضوء المائل يقشط الأرض ويجعل الامتداد ناعمًا.

-أترون أحدًا على الطريق؟ سألت نويمي.

-قطيعٌ من الأغنام مع راعيه، لكنّه بعيدٌ جدًّا... هل الطبيب قادمٌ من هناك؟

-إنّها والدتنا. أجابت نويمي.

-لديها... أنت تعلمين ذلك! قالت لوسيين.

وقرّبت وجهها المنمّش وشعرها الأشعث المُذهّب في الشمس نحو الوجه الهزيل والمكروب للأخت الكبرى التي استأنفت:

-التي ستأتي هي الحقيقيّة.

وتحدّثت بهدوءٍ وعيناها محدّقتان بالأقاصي، وبدت جادّةً للغاية لدرجة أنّ أخويها الصغيرين صدّقا كلماتها وحاولا أيضًا اكتشاف الطريقِ الذي ستأتي منه الأم.

-أليست كبيرة في السن؟ سألت لوسيين كما فعلت نويمي.

-ليست كذلك على الإطلاق ويجب أن تأتي، وبدونها سنضيع يا صغيريّ.

لم يفهما تمامًا لماذا، لكنّهما لانا وامتلأت عيونهما بالدموع. سيحلّ الليل وستمسي الطريق رماديّةً حتى طرفها، ولا أحد مرّ ولا الأمّ أتت.

سئم الصغيران من التحديق بذات المكان وبدآ بتلمّس الحشائش والحجارة، فيما نويمي وحدها ما تزال عيناها مصوّبةً نحو الأمام ونصف وجهها مضاءٌ بالغروب الشاحب، شابكةً يديها تحت مئزرها وهي تقول في الريح التي تهبّ من الظلمة: «عودي! عودي!»

وأخفت العتمة الوادي الثاني بشكل تام، وخلطت بين الطريق والمستنقع حتى على الهضبة. عند ذلك استدارت نويمي، وبدت مثقلةً بحزنٍ شديدٍ لدرجة أنّ الصغيرين باتا ينظران إليها الآن من الجهتين ويمسك كلّ واحدٍ منهما بيدٍ بغية الطمأنينة. عاد الثلاثة إلى منزلهم وغادر العمال وانتهى النهار، وما يزال لوارن يعاني من الحمى، وقالت المرأتان إنّه لن يعيش.

وفي اليوم التالي، على نفس النتوء فوق قمّة التل، عادت نويمي برفقة لوسيين وجويل، وكذلك في اليوم الذي تلاه، وفي اليوم الرابع يئست من ذلك ولم تصعد مرّةً أخرى.

---

(9)ويسميه البعض بالبيتموس أو بالبطموس، وهي نباتات متفحمة توجد بالأراضي الغدقة في المناطق المعتدلة، بحيث تتعفن ببطء في الطور الأول لتكون الفحم، وتتركب من الحزازيات ونباتات المستنقعات القصبية كالغاب والبوص، وتعتبر من المواد القابلة للاشتعال (المترجم)

XIII

الأم

وفي اليوم الرابع توقف الصغار عن الصعود إلى المحجر.

فيما ثمّة امرأة آتية إليهم في هذا اليوم بالذات.

لم تتلقّ الرسالة حتى الصباح، وذلك لأنّ بائع البيض نسي الورقة التي تحملُ الرسالة في جيب بلوزته. وكعابرةٍ مجهولةٍ لبلدانٍ مجهولة، وضاحكةً بشدّةٍ ورأسها بين يديها أو جالسةً في ركنٍ من أركان الحجرة الثالثة، ها هي قادمة، وليس هناك سوى شيء واحد يشغل بالها قبل أيّ شيءٍ آخر: كيف ستظهر أمامهم مرّةً أخرى؟ بمَ ستجيبهم لو سألوها: «أين كنت يا أمّي؟» حتما لن يصدّقوها لو قالت لهم: «ما زلت أحبّكم جميعًا». لن تكون مصدّقة بل ستُحتقرُ، إمّا الآن أو لاحقًا، من قبل أولئك الذين ولدتهم، وستحملُ معها في المنزل خطيئتها التي دامت سبع سنواتٍ، وما زالت تشعر بها، حين سيقدمون على تقبيلها من جبينها! ستعيش بين هذا الندم والانتقام المحتمل وبعض العتاب من زوجها! ستعيد اكتشاف البؤس القديم الذي سيفاقمه المرض! ستدفن نفسها في كلّ واجبات الماضي المتزايدة ولن يكون لديها لاستعادة الشجاعة شبابها الأوّل الذي سيساعدها كثيرًا! ... يا له من مستقبل! أليس موجودًا هناك حيث تتجه؟ ... لماذا غادرت؟ كانت تتساءل دون أن تفهم نفسها حتى: «كيف فعلتُ ذلك؟ إنّني ذاهبةٌ إلى محنتي! دائمًا المزيد! دائمًا المزيد!».

مضى القطار منذ ساعات، وأحرقت الشمس الموضع حيث كانت موجودة. بالفعل كانت الشمس مائلة وأشعّتها منحرفة كحبات القمح المتساقطة. ومع

ذلك لمَ ترَ ولم تشعر بأيِّ شيءٍ سوى ألمها.

أجل، كيف قرّرت ذلك فجأةً؟ في ذهنها عادت الأحوال التي كانت سائدةً في ذلك الصباح مرارًا وتكرارًا. كم كانت الساعة؟ السابعة والنصف... هذا صحيح... أكثر من ذلك بقليلٍ ربّما... خرجت لأجل المؤن... وكانت مرتديّةً لقبّعتها المصنوعة من القش، وذلك على غير عادتها بأن تخرج للحيّ عارية الرأس، وأتى ساعي البريد حاملًا رسالة... لم تعرف الخط... فتحتها وقرأتها... من حسن الحظّ أنّه ليس من زبونٍ لديها! وبإمكانها تقبيل الصفحة عشر مرّات، عشرين مرّة... فهذه الرسالة كتبتها نويمي! طلبتها للنجدة... وليس هناك حتّى تردّد ولا تفكير. طلبتها للنجدة، وينبغي أن تذهب وترى ابنتها الكبرى مرّةً أخرى، نويمي التي تشبهها، وأن تجد قلوب أطفالها قبالة صدرها وتجذبهم الثلاثة حولها وأذرعهم حول رقبتها... بدت صورة سعادة الأم هذه قويّة للغاية، لدرجة أسرعت دوناتيين إلى غرفتها وفتحت الخزانة، ومن على الرفّ العلويّ التقطت عبوةً ملفوفةً بمنشفةٍ مخيّطةٍ رماديّة اللون جرّاء تراكم الغبار.

-ما الذي تبحثين عنه يا دوناتيين؟ لماذا عدتِ؟ قال باستيان لاراي وهو نصف نائم.

-لا شيء، عد إلى النوم، سأذهب إلى غسّالة الثياب.

وعلى عجلٍ نزلت، وأخذت مفتاح المنضدة ووضعت المال الموجود هناك في جيبها... ألن يكون كلّ الباقي لها؟ أوه! إنّها لا تسرقه، فهي بعيدةٌ عن ذلك... بل إنّها تركت له أكثر ممّا عليه مطالبتها. وكمجنونةٍ من الفرح والخوف سلكت سكة حديد الحزام ومن ثمّ الخط المركزيّ الرئيسي.

وها هي الآن تتمنى أكثر فأكثر ألّا تُكمل الرحلة، وبدا لها أنّها انجرفت نحو الهاوية، ونما بداخلها الخوف مع اقترابها من نهاية الطريق واستولت عليها الثورات ضدّ قرارها الأوّل مثل أولئك الذين سيصبحون سجناء ويكافحون ويبتعدون في اللحظة الأخيرة... ومتخذةً طريق باريس من جديد، لم تفكّر في الأمر، فكلّ هذا قد انتهى: تحرّرت من العبوديّة... ولكن لماذا تهرعُ نحو أخرى؟ ... كان من السهل النزول في هذه المحطّة وفي تلك الأخرى الكائنة في تلك البلدة... كانت تجد دائمًا طريقة لكسب لقمة العيش...

أدركت دوناتيين أن المحطّات لن تكون كثيرةً قبل المحطّة النهائيّة، وذلك لأنّ نهاية اليوم بدأت تقترب. بدا الجوّ ذهبيًا تمامًا، ومن بين خصلات البرواق(10) الجافّة فوق الهضبة المغطّاة بالخلنج والمراعي تلألأت البرك المزدانة بخطوطٍ ذهبيّةٍ تجمع بين الضفاف البنفسجيّة، والتي تثقبها أسلةٌ مكسورةٌ هنا وهناك. وقت وصولها سيكون آخر وميضٍ للشمس. وحين يتوقّف القطار كانت المسافرة تلمس الصرّة الموضوعة على المقعد ثلاث مرّات، وتنهض وتنوي النزول إلى هذه الأرياف التي كانت، على الأقل بالنسبة لها، خاليةً من أيّ خوفٍ سوى الخوف من المجهول، ولكن ثمّة شيئًا أقوى من الخوف جعلها تتخلّى عن هذا الفرار: خلال المرّات الثلاث سمعت أسماء نويمي ولوسيين وجويل تعلو مثل صوت البحر في الكهوف اللامرئيّة. تذكّرت صيغَ الرسالة الموضوعة في صدريّتها والتي تقول: «أصابتنا مصيبة، فاليوم كُسِرت ساقا الأب وصرخ عاليًا، وربّما قد يموت وحتمًا ليس بقادرٍ على العمل في المحجر مرّةً أخرى. آه يا أمّي! بحال وصلتكِ رسالتي فارجعي إليّ، ارجعي إلى نويمي».

فتجلس مرّةً أخرى وتستعيد قواها لتمضي نحو المحطّة التالية.

ما زالت الشمس تذهب نحو الغروب... وتوقّف القطار ونادى الموظّف باسم القرية التي أرِخت رسالة نويمي منها.

إنّها هنا.

ومن على الرصيف نزلت امرأةٌ بمفردها وصرّتها في يدها، وشرعت العربات بالسير مرّةً أخرى، وحين اختفت استفسرت المرأة عن وجهة سيرها، وحين قيلت لها ظلّت بلا حراك وشاحبة لدرجة أنّ مدير المحطّة سألها: «هل أنت مريضة؟». فهزّت رأسها، ولم تكن قادرةً فقط على حمل ألمها أبعد من ذلك والتحرّك.

وحين لم يفهم تركها الموظّف، وبقيت على حالها هذا لعدّة دقائق، ومن دون التفكير في قرارها من جديد ودون أيّ شيءٍ في روحها يشير إلى الكفاح والانتصار، لقد اتخذت تلك الخطوة الأولى التي دلّت على الرضا بالقدر. كانت إرادةً غامضة، فعلًا يكاد يكون فاقدًا للوعي في الحاضر وأسبابه قديمة، غير أن أصغر تضحيةٍ وأبسطها وأكثرها تأخرًا تجدّد الروح. وبمجرّد عبورها رصيف المحطّة شعرت دوناتيين بالقوّة، ومضت ملتفتةً نحو اليسار وهي تردّد: «كلّ هذا لكي أعود إليكم يا صغاري الثلاثة!» وكان قلبها خافقاً بفرح المعاناة لأجلهم. أسرعت خطاها، ورأت أمامها حافّة الهضبة والسهل الهائل في الغبار الأحمر لغروب الشمس، حيث كان عليها النزول.

هذا ما كان عليها.

وعلى بعد مسافةٍ من المحطّة حيث لا أحد في الطريق، فتحت الصرّة الملفوفة بقطعةٍ من القماش، وأخذت الثوب الأسود متعدّد الطيّات والمزركش بالمخمل – ذاك الذي أتت به ذات يومٍ لباريس – كما عثرت على ثلاثة أغطيةٍ

للرأس مصنوعةٍ من الموسلين، أغطية بلويغ الشبيهة بزهرة بخور مريم، واختارت إحداها رغم تجعّد قماشته واصفرارها. وعند دخولها من بوّابة أحد الحقول ارتدت الزيّ البريتاني القديم، ولفّت الفستان الذي اشترته من المدينة بمنشفة، وقالت لنفسها:

-هكذا سيتعرّفون عليّ بشكلٍ أفضل.

وتابعت مشيها مرّةً أخرى، ومجدّدًا سمعت الخفقان الناعم لأجنحةِ غطاء الرأس المصنوع من الكتان على صدغها.

عبرت دوناتيين الهضبة ونزلت إلى السهل حيث حاولت تخمين المنزل بنظرةٍ مرتعبة، وكانت قد قرّرت الدخول. صعدت التل الأول المتوّج بالمنحدرات الصخرية والذي من خلفه يتواجد السياج، لكنّها لم تكن تعرف ذلك فهي جديدةٌ على البلد. ولكي تمنح نفسها الشجاعة تساءلت عمّا إذا سيتعرّف عليها أطفالها، وأيّ من الثلاثة الذين تركتهم سيتعرف عليها أولًا.

ومع اقتراب اليوم من نهايته ما زال العمال يعملون، وسمعت أصوات ضربات فؤوسهم.

ثمّة طفلٌ يلعب عند جانب الطريق بالحجارة التي رتّبها على شكل أهرامات: إنّه بابتيست الذي تبنّاه عمال المحجر منذ اليوم الأوّل للمحنة، فيأخذونه معهم كلّ صباحٍ ويدفعون له طبقًا من الحساء مقابل نزوله إلى البلدة والقيام بالأعمال. وكانت دوناتيين على وشك تجاوزه.

-طاب نهارك أيّها الصغير!

-طاب نهاركِ سيّدتي!

-قل لي، هل منزل جان لوارن بعيد؟

فاستدار نحوها بوجهه المربّع وعينيه المتألّقتين بالحياة، حيث لم يمرّ حلمُ بحار بريتانيا مطلقًا.

-لا ليس ببعيد، أوّل منزلٍ في أسفل التل.

وبينما كانت تنظرُ تحتها في المساء الذي يحفر الأودية، تابع الطفل قائلًا:

-يمكنني مرافقتك فهذا منزلي، أنا لوارن.

-أنت؟ هذا ليس صحيحًا!

-ليس صحيحًا؟ اسألي الجميع في الأسفل إذًا، ألستُ أنا لوارن، بابتيست لوارن؟ إنّها لا تريد تصديقي!

فأجابت أصواتٌ عاليةٌ تردّد صداها من المنحدرات:

-ولكن صحيح! تستطيعين أن تثقي به! إنّه ابن صديق!

وبينما كان الصغير يرتقب بإباءٍ إجابتها، رأى وجهها يبيضّ بحيث استعاد وجه والده الجريح. عندئذٍ فهمت دوناتيين: إنّه طفل المرأة الأخرى الذي حيّاها أوّل تحيّة! ...

عندها أطلقت دعوةً إلى الله من أعماق ماضيها وماضي سلالتها، وفي عذاب قلبها سعت على نحوٍ مبهمٍ للبحث عن صليبٍ بين أوراق الشجر، كما هو الحال في بريتانيا عند مفترق الطرق، لتعلّق عليه صلاة بسيطة، ولكنّها لم تجد أيّ شيء.

واستجمعت نفسها للحظةٍ قصيرةٍ وشعرت بضعفٍ أقل، ونظرت إلى الطفل

مجدَدًا وسألته:

-هل والدتك في المنزل يا بابتيست؟

-لا يا سيّدتي، ويُقال إنّها لن تعود مطلقًا.

-من يقول ذلك؟

-شقيقتاي ونساء القرية أيضاً.

فأمسكت دوناتيين بيد الطفل وقالت:

-خذني يا صغيري، إنّهم مخطئون، فوالدتك عادت بالفعل لأنّني هنا.

لم يفهم عليها، وشرعا بالنزول مع بعضهما جنبًا لجنب، ومن بين جذوع أشجار الحور أشار الطفل إلى سطح المنزل ولكنّها لم تره. وكانت عيناها مفتوحتان على مصراعيهما ومرفوعتان قليلًا، وشفتاها تشربان الريح وتتحركان. قالت دوناتيين: «أريد أن أموت، دعني أحملُ الحياة!».

بالكاد سمعها بابتيست لأنّها تتكلّم بصوتٍ بغاية الخفوت، واعتقد أنّها تنطق باسم نويمي، فقال:

-ستأتي، فعندما تراني أختي الكبرى تقترب على الدوام.

في تلك اللحظة وصلا لأسفل التل، وبات من الممكن رؤية سياج النباتات لدار لوارن وأوراق أشجار الحور المرتعشة أعلاه. كانت بوابة الحاجز مفتوحة، فهذه هي الساعة التي يصمتُ بها الريف ليرتشف بداية الظلّ وبداية النضارة. صفر بابتيست صفرتين، وفي الضوء الرماديّ عند طرف الحديقة أجاب رأس شابّةٍ مستيقظةٍ النداء وانحنت خارج الباب مبتسمة،

وأرادت الكلام، ولكنّها فجأةً أصيبت بترنّحٍ وكأنّها تنسحب واتّسعت عيناها اللتان اكتشفتا للتو، بالقرب من بابتيست، امرأة متّكئة على السياج، نحيلة وشاحبة وما تزال شابّة، وشعرها مختلفٌ تمامًا عن شعر نساء البلد.

تردّدت نويمي للحظةٍ، ومن ثمّ امتلكت الشجاعة لئلا تصيح، وخرجت راكضةً وصامتةً وشجاعةً وعيناها مرفوعتان بفرح. كانت متأكّدة، فقلبها تعرّف على الأم أكثر من عينيها.

هذه الأخيرة رأتها قادمة ولبثت واقفةً بلا حراك.

وأغلقت عينيها من السعادة والألم حينما أمست نويمي بالقرب منها، وفي وضعٍ مستقيمٍ تركت نفسها محاطة بذراعي الفتاة التي كانت تقول الكلمة التائقة لسماعها: «ماما! ماما دوناتيين!»

لكنّها شعرت أنّها لا تستحق، وفرّ الفرح فيما غاص في قلبه.

-أبي بخيرٍ ماما دوناتيين: منذ الصباح أصبح واعيًا وهدأت الحمّى... آه! لم أعد أعتمد عليك بعد الآن ماما!

لا أحد سمعهما، الأولى التي تبكي والثانية التي تتحدّث بصوتٍ خافت.

وكانت العتمة على وشك السواد والحديقة صامتة، ولكن من الممكن المجيء. قامتِ الأم بفكّ اليدين اللتين تعانقاها ودفعت الفتاة التي أرادت تقبيلها والتحدّث معها مرّةً أخرى، وبعصبيّةٍ وضعت أصابعها على شفتي نويمي خوفًا من السؤال الذي يعذّبها وقالت:

-لا تسأليني عن أيّ شيء، فلطالما ظلّت مكانتكم داخل قلبي يا صغاري... وقد عدتُ لأجلكم... خذيني!

خفيفة ومضطربة وفخورة أخذت الفتاة والدتها من يدها، ورافعةً جبينها سارت بمحاذاة رقعة الملفوف والبركة واستدارت لدخول المنزل.

لم يكن هناك مصباح مضاء في الغرفة، والضوء ليس سوى شعاع خافت يتسرّب بانحرافٍ من النافذة نحو سرير الأب ويذوب في الظلام المتزايد.

كانت المرأتان الجارتان جالستين بالقرب من النافذة، فيما جويل ولوسيين يلعبان على الأرض في الظل، أمّا الجريح فنائم.

وحين دخلت دوناتيين من خلف نويمي لم ينتبه إليها أحد، ومشت إلى السرير دون ملاحظتها من قبل أحد. كان وجه لوارن نائمًا في الظل، فيما وجه زوجته يتلقّى النور الضعيف. تهامست الجارتان: «من تكون؟» ومال جناحا غطاء الرأس الكتّاني نحو الجريح. نظرت دوناتيين إلى لوارن، هذه المرأة التي أخطأت وعانت قد راودتها الشفقة، على الأقل في هذه اللحظة، وتأمّلت الوجه الهزيل والمعذّب، المسنّ والمنهك جراء الحزن والعمل، الوجه الذي رسمته بمغادرتها، وكانت شفتاه ترتعشان.

أمّا نويمي التي ابتعدت وتراجعت قليلًا، كانت قريبة جدًا من التنورة ذات الطيّات الصغيرة التي تمسكها بيدها، تنهّدت بكلمةٍ واحدةٍ في الغرفة الصامتة:

-ماما!

فرفع الرجل جفنيه، ومن أعماق النوم والنسيان صعدت روحه ببطءٍ نحو عينيه اللتين ذُهلتا لرؤية غطاء الرأس البريتوني، وتاهتا في الأعلى وعادتا إليها، واقشعرّتا وتأججت منها دمعتان متدفّقتان.

لقد تدفقت العديد منها ذي قبل لدرجة أنّها سقطت بشكل أسرع.

وسأل جان:

-أهذا أنت يا دوناتيين؟

-أجل أنا هي.

وكانت الأصوات ضعيفةً كالضوء، وبدا أنّ نظرة لوارن تتسع، وأنّ الأمر كما لو أنّ طريقًا قد فُتح نحو حزن روحه الخفي.

-كم تأخّرت لتعودي! قال لها. ليس لديّ في هذه الساعة ما أعطيك إيّاه سوى الشقاء.

أرادت أن تجيب، لكنّ الرجل الجريح أغلق عينيه وغرق وجهه في الوسادة خاملًا ومرهقًا جرّاء النوم.

استدارت دوناتيين نحو منتصف الغرفة، وتنفّست بسرعةٍ مثل أولئك اللواتي أوشكن على البكاء. واقتربت سيّدتا البلدة، وأحضرت نويمي لوسيين وجويل لها وهما متردّدان ومعاندان، وقالت لهما عبثاً: «إنّها أمّنا، أؤكّد لكما أنّها أمّنا الحقيقيّة»، لم يعرفاها وكانا خائفين منها، وبمجرّد أن احتضنتهما دوناتيين هربا وانسلّا في العتمة.

عندها طلبت وهي بالقرب من السرير الذي لم تتحرّك من فوقه بعد:

-أعطوني الضوء يا أطفالي.

وحين وُضع الضوء على الطاولة الكائنة في منتصف الغرفة بدا أن هذه البريتانيّة لم تعد قادرةً على كبح جماح دموعها، ولكنّها لم ترد منحها كامل السلطة عليها. وبوقوفها بجانب نويمي بدت وكأنّها أخت أكبر منها بقليل

وأنّها كانت تتألّم، وتنهّدت تنهيدة عميقة وقالت بهدوء:

-ألم يحن موعد تحضير العشاء يا نويمي؟

-أجل ماما.

توقفت دوناتيين للحظةِ كما صعُبَ عليها قول الكلمات التي ينبغي عليها إضافتها.

-أعطيني قباقيب تلك التي غادرت.

-أجل ماما.

-سأستخرج الماء وسأصنع الحساء لكم الأربعة.

وبعد أن ارتدت قباقيب المرأة الأخرى، شرعت في العمل.

انتهى

---

(10) أو العيصلان أو الخُنثى (بالفرنسيّة asphodèle) جنسٌ نباتيّ ينتمي إلى الفصيلة البروقية، ويضم حوالي 15 نوعاً من النباتات معظمها معمّرة (المترجم).


كلاسيكيات جدل
دوناتيين
رينيه بازان
ترجمة
بهاء إيعالي
منشورات جدل
رواية